

سورة الإسراء

مكية إلا الآيات ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧ ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنية وآياتها ١١١ نزلت بعد القصص.

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٦] نزلت حين جاء رسول الله ﷺ وقد تُقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] الآية. وقال مقاتل: وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآية. وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل والكهف (ومريم): إنهن من العتاق الأول، وهن من تلاميذ^(١) يريد من قديم كسبه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَدَرْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف. لأن في آخره زائدتين، تقول: سبحت تسيحاً وسبحاناً، مثل كفرت اليمين تكفيراً وكفراناً. ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص. فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر:

أقول لما جاءني فخره
سبحان من علقمة الفاجر

فإنما ذكره على طريق النادر. وقد روى طلحة بن عبيد الله الفيض أحد العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما معنى سبحان الله؟ فقال: «تنزيه الله من كل سوء»^(٢). والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القرفصاء، واشتمل الصماء؛ فالتقدير عنده: أنزه الله تنزيهاً؛ فوقع «سبحان الله» مكان قولك تنزيهاً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ في لغتان: سرى وأسرى؛ كسقى وأسقى؛ كما تقدم. قال:

(١) صحيح موقوف: تفرد به البخاري (٤٧٠٨) في التفسير عن مسلم - رحمه الله .

(٢) ضعيف: الحاكم (١/٦٨٠) في المستدرک وفيه حفص بن سليمان وهو متروك على إمامته في القراءة كما في التقريب. وذكره الطبري. مرسل (٣/١٥) في تفسيره عن موسى بن طلحة .

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةً تَرْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ

وقال آخر:

حَيَّ النَّضِيرَةَ رَبَّةَ الْخَدْرِ أَسْرَتْ إِلَيَّ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي

فجمع بين اللغتين في البيتين. والإسراء: سير الليل؛ يقال: سَرَيْتَ مَسْرِيًّا وَسُرَيْتَ، وأسريت

إسراء؛ قال الشاعر:

وليلة ذات ندى سریتُ ولم يَلْتَنِي من سُرَاهَا لَيْتُ

وقيل: أسرى سار من أول الليل، وسرى سار من آخره؛ والأول أعرف.

الغائنة: قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ قال العلماء: لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم اسم أشرف منه

لسمّاه به في تلك الحالة العلية. وفي معناه أنشدوا:

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفه السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدا فإنه أشرف اسماني

وقد تقدّم. قال القشيري: لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية،

ألزمه هسم العبودية تواضعا للأمة.

الرابعة: ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث، ورؤي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام

فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش من رواه عشرين صحابيا. روى الصحيح عن أنس بن مالك

أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض (طويل) فوق الخمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء قال ثم

دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا إلى السماء...» وذكر الحديث^(١). ومما

ليس في الصحيحين ما خرجه الأجرى والسمرقندي، قال الأجرى عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قال أبو سعيد:

حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسري به، قال النبي ﷺ: «أتيت بدابة هي أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان وهو البراق الذي كانت الأنبياء تركبه قبل فركبته فانطلق تقع يده عند منتهى بصره

فسمعت نداء عن يميني يا محمد على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج عليه ثم سمعت نداء عن يساري يا محمد على رسلك ولم أعرج عليه ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا

رافعة يديها تقول على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته في الحلقة التي كانت الأنبياء تُوثق بها ثم دخلت المسجد وصليت فيه فقال لي

جبريل عليه السلام ما سمعت يا محمد: فقلت: سمعت نداء عن يميني يا محمد على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج فقال: ذلك داعي اليهود ولو وقفت لتهودت أمك قال: ثم سمعت نداء

عن يساري على رسلك حتى أسألك فمضيت ولم أعرج عليه فقال: ذلك داعي النصارى أما إنك لو

(١) صحيح: البخاري (٣٤٩) عن أنس عن أبي ذر به في كتاب الصلاة، ومسلم (١٦٢) في الإيمان عن أنس رضي

وقفت لتنصرت أمتك قال: ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول: على رسلك فمضيت ولم أعرج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفت لا اخترت الدنيا على الآخرة قال ثم أتيت باناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقبل لي خذ فاشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لي جبريل أصبت الفطرة ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك ثم جاء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسن ما رأيت أو لم تروا إلى الميت كيف يحد بصره إليه فخرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقبل: من هذا قال جبريل قالوا: ومن معك قال محمد قالوا وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ففتحوا لي وسلّموا عليّ وإذا ملك يحرس السماء يقال له إسماعيل معه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف قال وما يعلم جنود ربك إلا هو...» وذكر الحديث إلى أن قال: «ثم مضينا إلى السماء الخامسة وإذا أنا بهارون بن عمران المحبّ في قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبي ﷺ وقال طويل اللحية تكاد لحيته تضرب في سرتّه ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم عليّ ورحب بي فوصفه النبي ﷺ فقال رجل كثير الشعر ولو كان عليه قميصان خرج شعره منهما...» الحديث (١). وروى البزار أن رسول الله ﷺ أتى بفرس فحمل عليه، كل خطوة منه أقصى بصره (٢) . . . وذكر الحديث. وقد جاء في صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم في الحجر إذ أتاني آت فحركني برجله فاتبعته الشخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائم على باب المسجد معه دابة دون البغل وفوق الحمار وجهها وجه إنسان وخفها خف حافر وذنبها ذنب ثور وعرفها عرف الفرس فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بركة لا تنفري من محمد فوالله ما ركبتك ملك مقرب ولا نبي مرسل أفضل من محمد ﷺ ولا أكرم على الله منه قالت قد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة وإني أحب أن أكون في شفاعته فقلت أنت في شفاعتي إن شاء الله تعالى...» (٣) الحديث. وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري عن أبي سعيد الخدري قال: لما مر النبي ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح الذي وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصراً من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصراً من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسرتها من عرق واحد فلما عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسيح أهلها سبحان من جمع بين الثلج والنار من قالها مرة واحدة كان له مثل ثوابهم استفتح الباب جبريل عليه السلام ففتح له فإذا هو بكهل لم ير قط كهل أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته قريباً من سرتّه قد كاد أن تكون شمطة. وحوله قوم جلوس يقص عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المحبّ في قومه...؟ وذكر الحديث (٤).

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن

(١، ٢) ضعيف جداً: الطبري (١٥/١٣) عن أبي سعيد الخدري فيه عمارة بن جوبن، وهو (أبو هارون العبدي) متروك.

(٣) هذا الحديث علامات الوضع لائحة عليه، وهو المنكر من حديث الإسراء كما سيأتي.

(٤) ضعيف جداً: انظر ما قبل السابق.

سبع بكمالها في كتاب (شفاء الصدور) له. ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت على النبي ﷺ بمكة في حين الإسراء حين عرج به إلى السماء. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراء بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهم من سرد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى.

فأما المسألة الأولى: وهي هل كان إسراء بروحه أو جسده؛ اختلف في ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكي عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء. قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفي اليقظة^(١)، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه ثم أسرى بجسده. وعلى هذا تدل الأخبار التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال بروح عبده ولم يقل بعبدته. وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] يدل على ذلك. ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما قالت له أم هانيء: لا تحدث الناس فيكذبوك، ولا فضل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشاً التشنيع والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون: إن كنت صادقاً فخبّرنا عن غيرنا أين لقيتهم؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررت عليها ففزع فلان فقيل له: ما رأيت يا فلان، قال: ما رأيت شيئاً غير أن الإبل قد نفرت». قالوا: فأخبرنا متى تأتينا العير؟ قال: «تأتيكم يوم كذا وكذا». قالوا: آية ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العير من هاهنا». فقال رجل: ذلك اليوم؟ هذه الشمس قد طلعت^(٢). وقال رجل: هذه عيركم قد طلعت، واستخبروا النبي ﷺ عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك. روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتنني عن أشياء من بيت المقدس لم أئبها فكُربت كُرباً ما كُربت مثله قط قال فرفعه الله لي أنظر إليه فما سألتني عن شيء إلا أنبأتهم به»^(٣) الحديث. وقد اعترض قول عائشة ومعاوية: «إنما أسرى بنفس رسول الله ﷺ» بأنها كانت صغيرة لم تشهد، ولا حدثت عن النبي ﷺ. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدث عن النبي ﷺ. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على (كتاب الشفاء) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتج لعائشة بقوله تعالى:

(١) وهو الحق لقيام الأدلة على ذلك.

(٢) البيهقي (٢/٣٥٦-٣٥٧) في الدلائل.

(٣) صحيح: مسلم (٧٢) في الإيمان.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ الْإِفْتِنَةَ لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فسمأها رؤيا. وهذا يرده قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ولا يقال في النوم أسرى. وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجوز في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبي ﷺ معارج؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام في الصحيح: «بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان»^(١) الحديث. ويحتمل أن يرده من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

المسألة الثانية: في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً، واختلف في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسري به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: تُوِّفِتْ خديجة قبل أن تُفرض الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبي ﷺ بسبعة أعوام. وروى عنه الواقصي قال: أسري به بعد مبعثه بخمس سنين. قال ابن شهاب: وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة، وحُرمت الخمر بعد أحد. وقال ابن إسحاق: أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل. وروى عنه يونس بن بكير قال: صلّت خديجة مع النبي ﷺ. وسأني. قال أبو عمر: وهذا يدل على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع. وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدّم. وقال الحرّبي: أسري به ليلة سبع وعشرين من (شهر) ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة. وقال أبو بكر محمد بن علي بن القاسم الذهبي في تاريخه: أسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال أبو عمر: لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يُسند قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم.

المسألة الثالثة: وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج به إلى السماء، وذلك منصوص في الصحيح وغيره. وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت؛ فروى عن عائشة رضي الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحضر. فأكملت أربعاً، وأقرت صلاة المسافر على ركعتين^(٢). وبذلك قال الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق. قال الشعبي: إلا المغرب. قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين فرضت عليه الصلاة يعني في الإسراء فهمز^(٣) له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضأ

(١) صحيح: البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق، مسلم (١٦٤) في الإيمان عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة وليس له إلا هذا الحديث.

(٢) صحيح: البخاري (١٠٩٠) في تقصير الصلاة، مسلم (٦٨٥) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) الهمز: في النهاية (٢٧٣/٥) لابن الأثير، قال الهمز: النخس، والغمز، وكل شيء دفعته فقد همزته.

وجبه واستشق وتضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء^(١). وروي عن ابن عباس أنها فرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين^(٢). وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قول ابن جريج، وروي عن النبي ﷺ ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا في أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقبتها^(٣). وروي يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المهاجر قال: سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أول الصلاة مثني، ثم صلى رسول الله ﷺ أربعاً فصارت سنة، وأقرت الصلاة للمسافر وهي تمام^(٤). قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يحتاج بمثله، وقوله «فصارت سنة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قول لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة في الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامسة: قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة» والحمد لله. ومضى في «آل عمران» أن أول مسجد وُضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذر^(٥)، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع في ذلك؛ فتأمل هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: «لا تُشَدَّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِلَى مَسْجِدِي هَذَا وَإِلَى مَسْجِدِ إِبِلْيَاءَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»^(٦). خرجه مالك من حديث أبي هريرة. وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل، ويصلي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطاً في ثغر سده: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل. وقد زاد أبو البختري في هذا الحديث مسجد الجند، ولا يصح وهو موضوع، وقد تقدم في مقدمة الكتاب.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ سُمِّيَ الْأَقْصَى لبعده ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة، ثم قال: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ قيل: بالثمار وبمجارى الأنهار. وقيل: بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين^(٧)؛ وبهذا جعله مقدساً. وروي معاذ

(١) هذا معضل : ذكره ابن إسحاق وهو بعيد عن الحديث ووقوعه .

(٢) صحيح : مسلم (٦٨٧) في صلاة المسافرين وقصرها بنحوه وزاد : (وفي الخوف ركعة) .

(٣) صحيح : النسائي (٢٥٥/١) في المواقيت وصححه الألباني هناك .

(٤) ضعيف : وانظر تعقيب المصنف عليه .

(٥) صحيح : البخاري (٣٣٦٦) في أحاديث الأنبياء ، مسلم (١/٥٢٠) في المساجد ومواضع الصلاة .

(٦) صحيح : النسائي (٣٤/٢) في المساجد ، وابن ماجه (١٤٠٨) في إقامة الصلاة .

(٧) صحيح : البخاري (١١٨٩) في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدنية ، مسلم (١٣٩٧) في الحج .

بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي» (١) «أصله سام فَعَرَّبَ». ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب. والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحداً واحداً، حسبما ثبت في صحيح مسلم وغيره. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقدم.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَمَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾

أي كَرَّمْنَا مُحَمَّدًا ﷺ بالمعراج، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة. ﴿وجعلناه﴾ أي ذلك الكتاب. وقيل موسى. وقيل معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبد ليلاً وأتى موسى الكتاب؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز. وقيل: إن معنى سبحان الذي أسرى بعبد ليلاً، معناه أسرينا، يدل عليه ما بعده من قوله: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] فحمل ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ على المعنى. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا» بالياء. الباقون بالتاء. فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿وكَيْلًا﴾ أي شريكاً؛ عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأموهم؛ حكاه الفراء. وقيل: رباً يتوكلون عليه في أمورهم؛ قاله الكلبي. وقال الفراء: كافياً؛ والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكَيْلًا. وقيل: التقدير لثلاث تتخذوا. والوكيل: من يوكل إليه الأمر.

﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

أي يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبي نجیح. والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع من على الأرض؛ ذكره المهدوي. وقال الماوردي: يعني موسى وقومه من بني إسرائيل، والمعنى يا ذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا. وذكر نوحاً ليدكرهم نعمة الإنجاء من الفرق على آبائهم. وروى سفيان عن حميد عن مجاهد أنه قرأ «ذُرِّيَّةً» بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد بن ثابت. وروى عن زيد بن ثابت أيضاً «ذُرِّيَّةً» بكسر الذال وشد الراء والياء. ثم بين أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبس ثوباً قال: بسم الله، فإذا نزع قال: الحمد لله (٢). كذا روى عنه معمر. وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شكره إذا أكل قال: بسم الله، فإذا فرغ من الأكل قال: الحمد لله (٣). قال سلمان الفارسي: لأنه كان يحمد الله على طعامه (٤). وقال عمران بن

(١) حسن: الهيثمي (٥٨/١٠ - ٥٩) في المجمع وقال: رواه أبو داود باختصار كثير، والطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير صالح بن رستم وهو ثقة. وفي الترغيب (٤/٣٠) قال المنذري رواه الطبراني من طريقين إحداهما جيدة.

(٢، ٣) هذا إسناد صحيح إليه.

(٤) صحيح إلى سليمان: الطبري (٢١/١٥) في تفسيره، والحاكم (٢/٣٦٠) في المستدرک وصححه، وإن كان ابن أبي حاتم قد أعله (١٧٨/٢) في العلل وقال: إنما هو عن سعد بن مسعود، وهو صاحب رسول الله ﷺ. قلت: وهو عن سعد كما في الطبري (١٥/٢٠) أيضاً.

سليم: إنما سمي نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسني في^(١). ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً فأنتم أحق بالاعتداء به دون آبائكم الجهال. وقيل: المعنى أن موسى كان عبداً شكوراً إذ جعله الله من ذرية نوح. وقيل: يجوز أن يكون ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ مفعولاً ثانياً لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾، ويكون قوله: ﴿وَكَيْلًا﴾ يراد به الجمع فيسوغ ذلك في القراءتين جميعاً أعني الباء والتاء في ﴿تَتَّخِذُوا﴾. ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ بدلاً من قوله ﴿وَكَيْلًا﴾ لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح. ويجوز نصبها بإضمار أعني وأمدح، والعرب قد تنصب على المدح والذم. ويجوز رفعها على البدل من المضمَر في ﴿تَتَّخِذُوا﴾ في قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب. ويجوز جرهما على البدل من بني إسرائيل في الوجهين. فأما «أن» من قوله ﴿تَتَّخِذُوا﴾ فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضع نصب بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلا يتخذوا. ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة^(٢) والقول مضمَر كما تقدم. ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون «لا» للنهي فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ وقرأ سعيد بن جبيرة وأبو العالية «في الكتاب» على لفظ الجمع. وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنى واحد. ومعنى ﴿قَضَيْنَا﴾ أعلمنا وأخبرنا^(٣)؛ قاله ابن عباس: وقال قتادة: حكمانا؛ وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه. وقيل: قضينا أوحينا؛ ولذلك قال: ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وعلى قول قتادة يكون ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى على؛ أي قضينا عليهم وحكمانا. وقاله ابن عباس أيضاً. والمعنى بالكتاب اللوح المحفوظ. ﴿تُفْسِدُنَّ﴾ وقرأ ابن عباس «لَتُفْسِدُنَّ». عيسى الثقفى «تُفْسِدُنَّ». والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها. ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ﴾ اللام في «تُفْسِدُنَّ» و«لَتَعْلُنَّ» لام قسم مضمَر كما تقدم. ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان.

(١) كذا عند الطبري (٢١/١٥).

(٢) وكما سبق إنه لا شيء في القرآن زائد بحمد الله.

(٣) بل القضاء هنا قضاء كوني، والآخر ضعيف إلى ابن عباس رضي الله عنهما للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى المرتين من فسادهم. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصْرُ في المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس^(١) وغيره. وقال قتادة: أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولو بأس شديد^(٢). وقال مجاهد: جاءهم جند من فارس يتجسسونه أخبارهم ومعهم بختنصر فوعى حديثهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى، فكان منهم جوسٌ خلال الديار لا قتل؛ ذكره القشيري أبو نصر. وذكر المهدوي عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا. ورواه ابن أبي نجیح عن مجاهد؛ ذكره النحاس. وقال محمد ابن إسحاق في خبر فيه طول: إن المهزوم سنحاريب ملك بابل، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كتابه، وبعث ملك بني إسرائيل واسمه صديقة في طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء وبرزقهم كل يوم خيزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث في بني إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شعياً؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم^(٣). وقال ابن عباس وابن مسعود: أول الفساد قتل زكريا^(٤). وقال ابن إسحاق: فسادهم في المرة الأولى قتل شعياً نبي الله في الشجرة، وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مرج^(٥) أمرهم وتنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضاً وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له قم في قومك أوح على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عدواً عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هذبة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها. وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل وإنما المقتول شعياً^(٦). وقال سعيد بن جبیر في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كفاراً، قاله الحسن. ومعنى جاسوا: عاثوا وقتلوا؛ وكذلك حاسوا وهاسوا وداسوا؛ قاله ابن

(١) إسناده محتمل للتحسين : الطبري (١٥/٢٢-٢٣) في تفسيره .

(٢) حسن : السابق (١٥/٢٩) .

(٣) ذكره الطبري (٥/٢٤) مطولاً بإسنادين كليهما ضعيف .

(٤) انظر قبل السابق .

(٥) مرج : في الصحاح : اختلط واضطرب .

(٦) انظر ما قبل تخريجين .

عُزَيْر، وهو قول القُتَيْبِي. وقرأ ابن عباس: «حاسوا» بالحاء المهملة. قال أبو زيد: الحَوْس والحَوْس والعَوْس والهَوْس: الطواف بالليل. وقال الجوهري: الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أي تخللوا فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها؛ وكذلك الاجتياص. والجَوْسان (بالتحريك) الطوفان بالليل؛ وهو قول أبي عبيدة. وقال الطبري: طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة. قال ابن عباس: مشوا وترددوا بين الدور والمسكن^(١). وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان:

ومنا الذي لا قى بسيفه محمد
فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب: نزلوا، قال:

فجسنا ديارهم عنوةً
وأبنا بسادتهم مؤثقينا

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أي قضاء كائنا لا خلف فيه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الدولة والرجعة؛ وذلك لما تبتم وأطعتم. ثم قيل: ذلك يقتل داود جالوت أو يقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم. ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ حتى عاد أمركم كما كان. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم. والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر مثل قدير وقادر. ويجوز أن يكون النفير جمع نَفَر كالكلب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر:

فأكرم بقحطان من والد
وجمير أكرم بقوم نفيرا

والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الواقعة الأولى أكثر انضماماً وأصلح أحوالاً، جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ
وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي نفع إحسانكم عائد عليكم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فعليتها؛ نحو سلام لك، أي سلام عليك. قال:

فخر صريعاً لليدين وللضم

أي على اليدين وعلى الضم. وقال الطبري: اللام بمعنى إلى، يعني وإن أسأتم فإليها، أي فإليها ترجع الإساءة؛ كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزينة: ٥] أي إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب. وقال الحسين بن الفضل: فلها رب يغفر الإساءة. ثم يحتمل أن يكون هذا خطاباً لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي أسأتم فحل بكم القتل والسبي والتخريب ثم أحسستم فعاد إليكم الملك والعلو وانتظام

(١) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما وانظر تفسير الطبري (٢٩/١٥).

الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمد ﷺ؛ أي عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله ملكٌ من بني إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القتيبي. وقال الطبري: اسمه هيردوس، ذكره في التاريخ؛ حملة على قتله امرأة اسمها أزييل. وقال السدي: كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملك أن يتزوج بنت امرأة له فنهاه عنها وقال: إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثياباً حمراء رقاقاً وطبختها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرايه، وأمرتها أن تتعرض له، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألت أن يؤتى برأس يحيى ابن زكريا في طست من ذهب؛ ففعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول: لا تحل لك؛ لا تحل لك؛ فلما أصبح إذا دمه يغلي، فألقى عليه التراب فعلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي^(١)؛ ذكره الثعلبي وغيره. وذكر ابن عساكر الحافظ في تاريخه عن الحسين بن علي قال: كان ملك من هذه الملوك مات وترك امرأته وابنته فورث ملكه أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك، وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له: لا تتزوجها فإنها يغني؛ فعرفت المرأة أنه قد ذكرها وصرفه عنها، فقالت: من أين هذا حتى بلغها أنه من قبل يحيى، فقالت: ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه، فعمدت إلى ابنتها وصنعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمك عند الملاء فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره، ويقول سليني ما شئت، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقوليني: لا أسأل إلا رأس يحيى. قال: وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رؤوس الملاء ثم لم يمض له نزع من ملكه؛ ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى، وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه، فاختر ملكه فقتله. قال: فساخت بأمرها الأرض. قال ابن جُدعان: فحدثت بهذا الحديث ابن المسيب فقال أما أخيرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت: لا؛ قال: إن زكريا حيث قُتل ابنه انطلق هارباً منهم واتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدبة تكفتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها، ونظروا بتلك الهُدبة فدعوا بالمنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها^(٢).

قلت: وقع في التاريخ الكبير للطبري فحدثني أبو السائب قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الخواريين يعلمون الناس، قال: كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ، قال: وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه... وذكر الخبر^(٣) بمعناه. وعن ابن عباس قال: بعث يحيى بن زكريا في اثني عشر من الخواريين يعلمون الناس، وكان فيما يعلمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت، وكان لملكهم بنت

(١) انظر تاريخ دمشق (٢٧/٢٥٦) عن أكثر من تابعي وهي كلها مراسيل لا تصح.

(٢) هذا الخبر أحسن أحواله أنه منقول عن الإسرائيليات والقصة في الإنجيل باسم (سالومي) فلا يصح النقل عن هؤلاء وقد عابها ابن عطية (١٠/٢٦١-٢٦٢) في المحرر الوجيز وقال: ليست ثابتة.

أخت تعجبه، وكان يريد أن يتزوجها، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها: إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجة؟ فقولني: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا؛ فقال: سليمان سوى هذا فقالت: ما أسألك إلا هذا. فلما أبت عليه دعا بطست ودعا به فذبحه، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث الله عليهم بختنصر فألقى في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقتل عليه منهم سبعين ألفاً، في رواية خمسة وسبعين ألفاً. قال سعيد بن المسيب: هي دية كل نبي. وعن ابن عباس قال: أوحى الله إلى محمد ﷺ إني قتلت يحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً. وعن سمير بن عطية قال: قتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا. وعن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التي تلي المحراب مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير. وعن قرّة بن خالد قال: ما بكى السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي؛ وحمرتها بكأوها^(١). وعن سفيان بن عيينة قال: أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن: يوم ولد فيخرج إلى دارهم، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم، ويوم يبعث فيشهد مشهداً لم ير مثله؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة مواطن: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] كله من التاريخ المذكور.

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة؛ فقليل: بختنصر. وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره. قال السهيلي: وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل، وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحو من ثلثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرّة الأخرى حين قتلوا شعياً، فقد كان بختنصر إذ ذاك حياً، فهو الذي قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها. وقال الثعلبي: ومن روى أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السير والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعياً وفي عهد إرميأ. قالوا: ومن عهد إرميأ وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاثاً وستين سنة.

(١) هذا كله باطل وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق بأسانيد مرسلّة أو ضعيفة ولا تصح، ولم يصح بكاء السماء على الحسين أو غيره من طريق معصوم وقد كذبتها ابن كثير - رحمه الله - في البداية (٥٧٣/٨) قال: وقد ذكر الطبراني هاهنا آثاراً غريبة جداً ثم ذكر مثال: (وأن أرجاء السماء احمرت) وأن الشمس كادت تطلع وشعاعها كأنه الدم، وصارت السماء كأنها علقه ثم قال: إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء. (١-هـ) والله أعلم.

قلت: وللأهمية: انظر تاريخ الطبري (٧١٣/٣).

قلت: ذكر جميعه الطبري في التاريخ رحمه الله. قال الثعلبي: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى وبعض الناس يقول: لما قتلوا زكريا بعث الله إليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له: خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشأم، ثم قال لرئيس جنوده: كنت حلفت بالهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيها دماء تَغلي، فسألهم فقالوا: دَمُ قربانٍ قربناه فلم يتقبل منا منذ ثمانين سنة. قال ما صدقتموني، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ، (فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ)، فأمر بسبعمائة ألف من سيّهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد، فقال: يا بني إسرائيل، أصدقوني قبل ألا أترك منكم نافع نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتله. فلما رأوا الجهد قالوا: إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَطِ الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى الله قطّ طرفه عين ولا هم بمعصية. فقال: الآن صدقتموني، وخر ساجداً ثم قال: لمثل هذا يُتقم منكم، وأمر بغلق الأبواب وقال: أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس، وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبيّ الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحداً. فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتل وقال: رب، إني آمنت بما آمن به بنو إسرائيل وصدقت به؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس الأنبياء: إن هذا الرئيس مؤمن صدوق. ثم قال: إن عدو الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكري، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خندقاً وأمر بأموالهم من الإبل والحيل والبغال واخلب والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفني بني إسرائيل.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حذيفة، وقد كتبه في (كتاب التذكرة) مقطوعاً في أبواب في أخبار المهدي، نذكر منها هنا ما بيّن معنى الآية ويفسرهما حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلت يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيم الخطر عظيم القدر. فقال رسول الله ﷺ: «هو من أجلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودرّ وياقوت وزمرد»: وذلك أن سليمان بن داود لما بناه سَخَّرَ الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرد، وسخر الله تعالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلت يا رسول الله، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس. فقال رسول الله ﷺ: إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم بختنصر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة، وهو قوله: «فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً» [الإسراء: ٥] فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم

بالخزي والعقاب والنكال مائة عام، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقذ من في أيديهم من بني إسرائيل؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس واستنقذ ذلك الحلبي الذي كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة فقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا عليكم بالسّي والقتل، وهو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عَلَيْنَا﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر، وهو قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ فغزاهم في البر والبحر فسيأهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلبي جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة حتى أودعه في كنيسة الذهب، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدي فيردّه إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يرسي بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين... وذكر الحديث (١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي من المرتين؛ وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، تقديره بعثناهم؛ دلّ عليه ﴿بعثنا﴾ الأول. ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي بالسّي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ﴿لِيَسُوءُوا﴾ متعلق بمحذوف؛ أي بعثنا عباداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم. قيل: المراد بالوجوه السادة؛ أي ليذلّوهم. وقرأ الكسائي «لنساء» (٢) بنون وفتح الهمزة، فعلٌ مخبر عن نفسه معظم، اعتباراً بقوله «وقضينا» و﴿بعثنا﴾ ووردنا. ونحوه عن علي. وتصديقها قراءة أبي «لنساء» بالنون وحرف التوكيد. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحزمة وابن عامر «ليسوء» بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولها وجهان: أحدهما ليسوء الله وجوهكم. والثاني ليسوء الوعد وجوهكم. وقرأ الباقون «ليسوءوا» (٣) بالياء وضم الهمزة على الجمع؛ أي ليسوء العباد الذين هم أولو بأس شديد وجوهكم. ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي ليدمروا ويهلكوا. وقال قُطْرُب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناس إلا عاملان فعامل
يتبر ما بيني وآخر رافع
﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ .

(١) باطل : فيه عصام بن رواد بن الجراح عن أبيه وهما ضعيفان ، وذكره الطبري (٢٣/١٥) بلفظ قريب وقال ابن كثير في تفسيره : وهو حديث موضوع لا محالة لا يترتب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث ، والعجب كل العجب كيف راج عليه ؟ أي على ابن جرير الطبري مع إمامته وجلالة قدره ، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي بأنه موضوع مكذوب ، وكتب ذلك على حاشية الكتاب . (أ.هـ) (٢٦/٣) في تفسيره ط - دار الفكر .

قلت : والعجب ممن قال : لم أجده كما في بعض المطبوعة ، ثم قال في تحقيقه على الطبري (٢٣/١٥) :

إسناده صحيح .

(٢) قراءة سبعية : السبعة ص ٣٨٧ لابن مجاهد .

(٣) قراءة سبعية : انظر الهامش السابق .

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمُ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و ﴿عَسَىٰ﴾ وعد من الله أن يكشف عنهم. و ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة. ﴿أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثُر عددهم وجعل منهم الملوك. ﴿وَإِنْ عُدتُّمُ عُدْنَا﴾ قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ﷺ؛ فهم يُعطون الجزية بالصغار^(١)؛ وروي عن ابن عباس^(٢). وهذا خلاف ما تقدم في الحديث وغيره. وقال القشيري: وقد حلّ العقاب بيني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرة على أيدي المسلمين^(٣). وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم. وعلى هذا يصح قول قتادة. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي محبساً وسجنًا، من الحَصْر وهو الحبس. قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصراً ضيق عليه وأحاط به. والحصير: الضيق البخيل. والحصير: البارية. والحصير: الجنب، قال الأصمعي: هو ما بين العرق الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترضاً فما فوقه إلى منقطع الجنب. والحصير: الملك؛ لأنه محجوب. قال ليبد:

وقمائم غلب الرقاب كأنهم جنّ لدى باب الحصير قيام

ويروى: ومقامة غلب الرقاب.....

على أن يكون «غلب» بدلاً من «مقامة» كأنه قال: ورُبَّ غلبِ الرقاب. وروي عن أبي عبيدة:

لدى طرف الحصير قيام.....

أي عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصير: المحبس؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾. قال القشيري: ويقال للذي يفتش حصيراً؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج. وقال الحسن: أي فراشاً ومهاداً^(٤)؛ ذهب إلى الحصير الذي يفرش، لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيراً. قال الثعلبي: وهو وجه حسن.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَابْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد ﷺ، ثم بين أن الكتاب الذي أنزل الله عليه سبب اهتداء. ومعنى ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب؛ ف «التي» نعت لموصوف محذوف، أي الطريقة التي هي أقوم. وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفرّاء.

(١) حسن إليه: الطبري (١٥-٤٥) في تفسيره.

(٢) واه: الطبري في السابق عن العوفيين وفي الإسناد: جهالة وضعف.

(٣) لكن الحديث لا يصح.

(٤) حسن: الطبري (٤٦/١٥) في تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ تقدم ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم. ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي الجنة. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ويشهرهم بأن لأعدائهم العقاب. والقرآن معظمه وعد ووعيد. وقرأ حمزة والكسائي «وييسر» مخففاً بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له: اللَّهُمَّ أَهْلِكَ (١)، ونحوه. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي كدعائه ربه أن يهب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضل له لا يستجيب له في ذلك. نظيره: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ [يونس: ١١] وقد تقدم. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنًا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢) [الأنفال: ٣٢]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوف بالبيت فيمن يطوف	وأرفع من منزري المُسَلِّ
وأسجد بالليل حتى الصباح	وأتلو من المُحْكَمِ المُنَزَّلِ
عسى فارحُ أَلِيمٍ عن يوسف	يُسَخَّرُ لي رَبَّةَ المُحْمَلِ

قال الجوهري: يقال ما على فلان مَحْمَلٍ مثال مجلس أي معتمد. والمَحْمَلُ أيضاً: واحد محامل الحاج. والمَحْمَلُ مثال المَرْجَلِ: علاقة السيف. وحذفت الواو من ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ﴾ في اللفظ والخط ولم تحذف في المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة؛ كقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَيَمَحُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ﴿يُنَادِ الصَّنَادِ﴾ [ق: ٤١] ﴿فَمَا تَعْنُ التُّدْرُ﴾ [القمر: ٥] ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أي طبعه العجلة، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركب فيه الروح على الكمال. قال سلمان: أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال: يا رب عَجَلٌ قبل الليل (٣)؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وقال ابن عباس: لما انتهت النفخة إلى سرتة نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (٤). وقال ابن مسعود: لما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجَلَانٌ إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الانبيا: ٣٧] ذكره

(١) ضعيف جداً: الطبري (٤٨/١٥) من طريق العوفيين وفي الإسناد جهالة وضعف .

(٢) سبق هذا أكثر من مرة .

(٣) منقطع : بين إبراهيم النخعي وسلمان رضي الله عنه كما في تفسير الطبري (٤٩/١٥) وابن أبي شيبة (٢٦٣/٧) في المصنف

(٤) ضعيف : وفيه علتان ، الأولى بشر بن عمارة وهو ضعيف الحديث ، والثانية : الانقطاع بين الضحاك وابن عباس رضي الله عنه وانظر الطبري (٤٩/١٥) .

البيهقي (١). وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما صور الله تعالى آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك (٢)؛ وقد تقدم. وقيل: سلم عليه السلام أسيراً إلى سودة فبات يئن فسأته فقال: أنيني لسدة القدر والأسر؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب؛ فأخبرت النبي ﷺ فقال: «قطع الله يدك؛ فلما أصبحت كانت تتوقع الآفة؛ فقال عليه السلام: «إني سألت الله تعالى أن يجعل دعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأنني بشر أغضب كما بغضب البشر» (٣) ونزلت الآية؛ ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما بغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه فأياً مؤمن آذيته أو سبته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقربةً تقربه بها إليك يوم القيامة» (٤). وفي الباب عن عائشة وجابر. وقيل: معنى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ أي يؤثر العاجل وإن قل، على الآجل وإن جل.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا. والآية فيهما: إقبال كل واحد منهما من حيث لا يعلم، وإدباره إلى حيث لا يعلم. ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضاً. وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل. وقد مضى هذا. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما. و ﴿فَمَحَوْنَا﴾ معناه طمسنا. وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور، والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو (٥). قال ابن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءاً والقمر سبعين جزءاً، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءاً فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة (وتسع) وثلاثين جزءاً والقمر على جزء واحد (٦). وعنه أيضاً: خلق الله شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقتها إلى مغاربها، وجعل القمر دون الشمس؛ فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو، ولو تركه شمساً لم يعرف الليل من النهار (٧). ذكر عنه الأول الثعلبي

(١) سبق تضعيف هذا الأثر وأنه منقول عن الإسرائيليات كما عند الآية (٣٤) من سورة البقرة .

(٢) صحيح : وقد سبق .

(٣) في هذا الحديث خلط ، فقد ذكره الضياء (٢٠ / ٥) في المختارة عن أنس ، ثم قال : وفي رواية أنه دفع إلى حفصة بنت عمر رجلا وذلك في المسند (١٤١ / ٣) أيضاً عن عائشة والحديثان إسنادهما حسن .

(٤) صحيح : البخاري (٦٣٦١) في الدعوات ، مسلم (٢٦٠١) في البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفيه : عن عائشة رضي الله عنها ، وعن جابر رضي الله عنه .

(٥-٧) هذه الآثار كلها باطلة لا جرم في ذلك ، وأحسن أحوالها أنها منقولة عن بني إسرائيل ، انظر الدر المنثور (٧-٥) (٢٦٨ / ٩) وما بعدها .

والثاني المهدوي؛ وسيأتي مرفوعاً (١). وقال علي رضي الله عنه وقتادة: يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار (٢). ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا شمس مضيئة للأبصار. قال أبو عمرو بن العلاء: أي يبصر بها. قال الكسائي: وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يبصر بها. وقيل: هو كقولهم خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبيثاً. ورجل مضعب إذا كانت دوابه ضعافاً؛ فكذلك النهار مبصراً إذا كان أهله بصراء. ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد التصرف في المعاش. ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار. وقد قال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [يونس: ٦٧]. ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَّةَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عرف الليل من النهار، ولا كان يعرف الحساب والعدد. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمرأ فكانا جميعاً شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمرأ فخلقها دون الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تُدرى أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكان الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ الآية (٣).

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أقرأ
كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق. وقال ابن عباس: ﴿طَبْعُهُ﴾ عمله وما قدر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان (٤). وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به. وقال مجاهد: عمله (٥) ورزقه، وعنه: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد. وقال الحسن:

(١) باطل ولا يصح: اللآلئ المصنوعة (٥٦/١) وقال السيوطي هناك: عبد المنعم هو ابن ادريس: كذاب.
قلت: وانظر ميزان الاعتدال (٦٦٨/٢) وعزه السيوطي (٢٦٧، ٢٦٨) في الدر المنثور لابن أبي حاتم وابن مردويه قال: بسند واه.

(٢) حسن الإسناد والحديث ضعيف: الطبري (٥٠/١٥) وابن عساكر (١١١/٢٩) في تاريخ دمشق.

(٣) موضوع باطل ولا يصح: انظر التخرج قبل السابق.

(٤) ضعيف: الطبري (٥٢/١٥) وفي إسناده عطاء الخراساني عن ابن عباس ولم يسمع من هذا.

(٥) صحيح إليه: السابق / نفسه.

﴿أَلْزَمْنَا طَائِرَهُ﴾ أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه التزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينجز عما زجر به أمكنه ذلك. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه. وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: «طيره» بغير ألف؛ ومنه ما روي في الخبر: «اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا رَبَّ غَيْرُكَ»^(١). وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيِّصَن وأبو جعفر ويعقوب «ويُخْرِجُ» بفتح الياء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتاباً؛ فـ ﴿كِتَابًا﴾ منصوب على الحال. ويحتمل أن يكون المعنى: ويخرج الطائر فيصير كتاباً. وقرأ يحيى بن وثَّاب «ويُخْرِجُ» بضم الياء وكسر الراء؛ وروي عن مجاهد؛ أي يخرج الله. وقرأ شيبه ومحمد بن السَّمِيع، وروي أيضاً عن أبي جعفر: «ويُخْرِجُ» بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول، ومعناه: ويُخرج له الطائر كتاباً. الباقون «ونُخْرِجُ» بنون مضمومة وكسر الراء؛ أي ونحن نخرج. احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله ﴿أَلْزَمْنَا﴾. وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر «يَلْقَاهُ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه. الباقون بفتح الياء خفيفة، أي يواه منشوراً. وقال ﴿مَنشُورًا﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة. قال أبو السَّوَّار العدوي وقرأ هذه الآية ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: هما نشرتان وطية؛ أما ما حبيت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت، فإذا مت طويت حتى إذا بعثت نشرت^(٢). ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسباً. وقال بعض الصلحاء: هذا كتاب، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قراطسه، أنت كنت الملمي على حفظتك، ما زيد فيه ولا نقص منه، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضل فعقاب كفره عليه. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقدم في الأنعام. وقال ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة، قال لأهل مكة: اتبعوني واكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم، فنزلت هذه الآية^(٣)؛ أي إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه. يقال: وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا وَوَزْرَةً، أي آثم. والوزر: الثقل المتقل والجمع أوزار؛ ومنه ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] أي أثقال ذنوبهم. وقد وَزَرَ إذا حَمَلَ فهو وازر؛ ومنه وزير

(١) صحيح: أحمد ٢/ ٢٢٠. في المسند عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وصححه الألباني (٦٢٦٤) في صحيح الجامع.

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٥٠)، والزهد (١/ ٣١٦) للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - وصفة الصفوة (٣/ ٢٣٠) لابن الجوزي - رحمه الله -.

(٣) سبق هذا.

السلطان الذي يحمل ثقل دولته - والهله في قوله كتحية عن النفس، أي لا تؤخذ نفس أمة بإثم أخرى، حتى أن الوالدة تُلقي ولدها يوم القيامة فتقول: يا بني ألم يكن حجري لك وطاء، ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن بطني لك وعاء، فيقول: بلى يا أمه فتقول: يا بني فإن ذنوبي أثقلتني فأحمل عني منها ذنباً واحداً فيقول: إليك عني يا أمه فأني بذنبي عنك اليوم مشغول.

مسألة: نزع عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الرد على ابن عمر حيث قال: إن الميت ليعذبُ ببيكاء أهله^(١). قال علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارض للآية. ولا وجه لإنكارها، فإن الرواية لهذا المعنى كثيرة؛ كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقيلة بنت مخزومة، وهم جازمون بالرواية؛ فلا وجه لتخطئتهم. ولا معارضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصية الميت وسنته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طرفة:

إذا ميت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا بنت مَعْبِدٍ

وقال:

إلى الحول ثم اسم الإسلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وإلى هذا نجا البخاري. وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذب بتوحيهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيعذب بتفريطه في ذلك؛ ويترك ما أمره الله به من قوله: ﴿فَوَأَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] لا بذنوب غيره، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي لم نترك الخلق سُدًى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبض ويحسن ويبسح ويحظر. وقد تقدم في البقرة القول فيه. والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا؛ أي أن الله لا يهلك أمة بعدذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَقِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا ﴿ [الملك: ٨] قال ابن عطية: والذي يعطيه النظر أن بعثه آدم عليه السلام بالتوحيد وبث المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك في زمن نوح عليه السلام بعد غرق الكفار. وهذه الآية أيضاً يعطي احتمال ألفاظها نحو هذا في الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفترات الذين قد قدر وجودهم بعض أهل العلم. وأما ما روي من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح^(٢)، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف. قال المهدي: وروي عن أبي هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة^(٣)، ذكره النحاس.

(١) صحيح: البخاري (١٢٨٦) في الجنائز، مسلم (٩٢٧) في الجنائز عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) إنما هو حديث حسن عند أحمد وأبي نعيم وإسحاق بن راهويه عن الأسود بن سريع وسياتي إن شاء الله.

(٣) ورواه الطبري (٥٦/١٥) بسند صحيح موقوف، وانظر عبد الرزاق (١/٣٧٤).

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعاً في آخر سورة طه إن شاء الله تعالى؛ ولا يصح وقد استدلل قوم في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وأمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى؛ وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: أخبر الله تعالى في الآية التي قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعد منه، ولا خلف في وعده. فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير. يعلمك أن من هلك فإنما هلك بإرادته، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا ﴾ قرأ أبو عثمان النهدي وأبو رجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن «أمرنا» بالتشديد، وهي قراءة علي رضي الله عنه؛ أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهدي «أمرنا» بتشديد الميم، جعلناهم أمراء مسلطين؛ وقاله ابن عزيز. وتأمر عليهم تسلط عليهم. وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حيوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن سلمة عن ابن كثير وعلي وابن عباس باختلاف عنهما «أمرنا» بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائي. وقال أبو عبيدة: أمرته بالمد وأمته، لغتان بمعنى كثرته؛ ومنه الحديث: «خير المال مَهْرَةٌ مأمورة أو سَكَّةٌ مأمورة»^(١) أي كثيرة التناج والنسل. وكذلك قال ابن عزيز: أمرنا وأمرنا بمعنى واحد؛ أي أكثرنا. وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يعمر «أمرنا» بالقصر وكسر الميم على فعلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا^(٢)؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا أمرنا بالمد؛ قال: وأصلها «أأمرنا» فخفف، حكاه المهدوي. وفي الصحاح: وقال أبو الحسن أمر ماله (بالكسر) أي أكثره. وأمر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر:

أَمْرُونَ لَا يَرْتُونَ سَهْمَ الْقَعْدِ

وأمر الله ماله (بالمد). الثعلبي: ويقال للشيء الكثير أمرٌ، والفعل منه: أمر القوم يأمرُون أمراً إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية للحي إذا كثروا: أمر أمر بني فلان؛ قال ليبيد:

كُلُّ بَنِي حُرَّةٍ مَصِيرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنَ الْعَدَدِ
إِنْ يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وَإِنْ أَمَرُوا يَوْمًا يَصِيرُوا لِلْهَلْكِ وَالنَّكَدِ

قلت: وفي حديث هرقل الحديث الصحيح: «لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة، ليخافه ملك بني

(١) ضعيف: ضعيف الجامع (٢٩٢٦) وضعفه الألباني هناك وعزاه لأحمد عن سويد بن هبيرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح إلى الحسن: الطبري (٥٧/١٥) في تفسيره.

الأصفر^(١) أي كثر. وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائي، والله أعلم. قال المهدي: ومن قرأ «أمر» فهي لغة، ووجه تعدية «أمر» أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شيء إلى العمارة، فعدي كما عدي عمر. الباقون «أمرنا» من الأمر؛ أي أمرناهم بالطاعة إعداراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيداً. ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد؛ عن ابن عباس. وقيل: ﴿أمرنا﴾ جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور، أي غير مؤمر. وقيل: معناه بعثنا مستكبريها. قال هارون: وهي قراءة أبي^٢ «بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا» ذكره الماوردي. وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أبي^٣ «وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول». ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ ومنه «خير المال مَهْرَةٌ مأمورة»^(٢) على ما تقدم. وقال قوم: مأمورة اتباع لمأبورة؛ كالعدايا والعشايا. وكقوله: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»^(٣). وعلى هذا لا يقال: أمرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يقال: أمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة. قال أبو عبيد: وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة. والمترف: المنعم؛ وخصوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم.

الثالثة قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ أي استأصلناها بالهلاك. ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح من حديث زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فرعاً محمراً وجهه يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه؛ وحلق بأصبعة الإبهام والتي تليها» قالت: فقلت يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»^(٤). وقد تقدم الكلام في هذا الباب، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سبباً لهلاك الجميع؛ والله أعلم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^(٥)

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي كم من قوم كفروا حل بهم البوار. يخوف كفار مكة؛ وقد تقدم القول في القرن في أول سورة الأنعام، والحمد لله. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ «خبيراً» عليمًا بهم. «بصيراً» يبصر أعمالهم؛ وقد تقدم.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾^(٦) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(٧)

(١) صحيح: البخاري (٧) في بدء الوحي، مسلم (١٧٧٣/٧٤-٧٤ مكرر) ضمن حديث طويل عن ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم وابن أبي كبشة: جد مجهول لرسول الله ﷺ، والعرب إن أرادت أن تضع رجلاً نسبه إلى جد مجهول ولذا كان عليه السلام يقول: «أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل: «أنا ابن عبد الله» لأن عبد المطلب أشهر وأكرم من عبد الله والده».

والأصغر: ابن لإسحاق عليه السلام ينسب الروم إليه والله أعلم.

(٢) ضعيف: سبق قريباً.

(٣، ٤) صحيحان: وقد سبقا.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾. يعني الدنيا، والمراد الدار العاجلة؛ فعبر بالنتع عن المنعوت. ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ثم نواخذة بعمله، وعاقبته دخول النار. ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي مطروداً مبعداً من رحمة الله. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم. وقد تقدّم في «هود» أن هذه الآية تقيد تلك الآيات المطلقة؛ فتأمل. ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي الدار الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي عمل لها عملها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن. ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي مقبولاً غير مردود. وقيل: مضاعفاً؛ أي تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين وإلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة؛ كما روي عن أبي هريرة وقد قيل له: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليجزئ على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إن الله ليجزئ على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة»^(١).

﴿كَلَّا نُبَدِّلُهُمْ آيَاتٍ وَهَوَّلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا نُبَدِّلُهُمْ آيَاتٍ وَهَوَّلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي محبوساً ممنوعاً؛ من حَظَرٍ يَحْظُرُ حَظْرًا وَحِظَارًا. ثم قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل؛ فمن مُقَلٌّ ومكثر. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي للمؤمنين؛ فالكافر وإن وسع عليه في الدنيا مرة، وقُتِرَ على المؤمن مرة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم؛ فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها. وقوله ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. وقيل: الخطاب للإنسان. ﴿فَتَقَعُدَ﴾ أي تبقى. ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ لا ناصر لك ولا ولياً.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا﴾ ﴿﴾

فيه ست عشرة مسألة:

(١) ضعيف وهو محتمل للتحسين: جوده الهيثمي (١٠/١٤٥) في المجمع وعزاه لأحمد بإسنادين والبخاري بنحوه وأحد إسنادي أحمد جيد، وصححه الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - في المسند (٢/٢٩٦)، وضعفه الألباني (١٦٥٥) في ضعيف الجامع.

الأولى: ﴿وَقَضَى﴾ أي أمر وألزم وأوجب^(١). قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر. وفي مصحف ابن مسعود «ووصى»^(٢) وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضاً وعليّ وغيرهما، وكذلك عند أبي بن كعب. قال ابن عباس: إنما هو «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوَيْن فقرئت ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد. وقال الضحاك: تصحفت على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وقت كُتِبَ المصحف^(٣). وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهران أنه قال: إن على قول ابن عباس لنورا؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(٤) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك. وقال: لو قلنا هذا لظعن الزنادقة في مصحفنا^(٥)، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق؛ كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَعِ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] يعني إحكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ؛ كقوله: ﴿قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي فرغ منه؛ ومنه قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]. والقضاء بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. والقضاء بمعنى العهد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤].

فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك، لأن الله تعالى لم يأمر بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثا. فقال: إنك قد عصيت ربك وبانت منك. فقال الرجل: قضى الله ذلك علي فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى الله ذلك أي ما أمر الله به، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٦).

الثانية: أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قرّن شكرهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله عز

(١) ضعيف إلى ابن عباس: للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وبين ابن عباس رضي الله عنهما وانظر الطبري (٦٣/١٥).

قلت: والقضاء هنا شرعي لا قدري كوني.

(٢) هي قراءة تفسيرية فحسب. وقد رواه الطبراني (٨٦٧٩) وقال الهيثمي (١٥٥/٧) إسناده منقطع وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف ورواه الطبري (٦٤/١٥) عن قتادة عن ابن مسعود ولم يسمع منه.

(٣) هذه الآثار باطلة المتن: وقد رواه ابن منيع كما في المطالب العالية (٤٠٣١)، وانظر الطبري (٦٤/١٥).

قلت: وهذا باطل ولا يصح فيه شر عظيم وأين الحفاظ الذين أملاوا القرآن من حفظهم وراجعوا المصحف أكثر من مرة؟

(٦) كذا عند الطبري (٦٣/١٥) وفيه شيخه ابن حميد وهو منهم.

وجل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «ثم برّ الوالدين» قال ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(١) فأخبر ﷺ أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام.. ورتب ذلك بـ «ثم» التي تعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسيئتهما ولا يعقهما؛ فإن ذلك من الكباثر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكباثر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال «نعم». يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»^(٢).

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن برهما موافقتها على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، كذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره في حق الولد مندوباً إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيداً في نديبته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك»^(٣). قال هذا حديث حسن صحيح.

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»^(٤). فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لذكر النبي ﷺ الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط. وإذا توصل هذا المعنى شهد له العيان. وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب^(٥). ورؤي عن مالك أن رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إلي أن أقدم عليه، وأمّي تمنعني من ذلك؛ فقال له: أطع أباك، ولا تعص أمك. فدل قول مالك هذا أن برهما متساو عنده. وقد سئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثي السبر. وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف. وقد زعم المحاسب في (كتاب الرعاية) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والله أعلم.

(١) صحيح: البخاري (٥٢٧) في مواقيت الصلاة، مسلم (٥١٨٥) الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه وعن أمه.

(٢) صحيح: البخاري (٥٩٧٣) في الأدب، مسلم (٩٠) في الإيمان.

(٣) صحيح: الترمذي (١١٨٩) في الطلاق، أبو داود (٥١٣٨) في الأدب وصححه الألباني في الموضعين. قلت:

لكن من مثل عمر اليوم ليطيعه ولده؟ وهذا قول أحمد - رحمه الله.

(٤) صحيح: البخاري (٥٩٧١) في الأدب، مسلم (٢٥٤٨) في البر والصلة.

(٥) يزيد على ذلك أن الأم ضعيفة بينما الأب يهدي إليه حقه وإن لم يطلبه لقوته ورجولته.

السابعة: لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ [المتحة: ٨]. وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة^(١) أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»^(٢). وروي أيضاً عن أسماء قالت: أنتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أفأصلها؟ قال: «نعم». قال ابن عيينة: فأنزل الله عز وجل فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [المتحة: ٨] الأول معلق والثاني مسند^(٣).

الثامنة: من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنها. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: «أحيي والذاك؟» قال نعم. قال: «ففيهما فجاهد»^(٤). لفظ مسلم. في غير الصحيح قال: نعم؛ وتركتهما يبيكان. قال: «أذهب فأضحكهما كما أبكيتهما»^(٥). وفي خبر آخر أنه قال: «نومك مع أبويك على فراشهما يضحاكك ويلعبانك أفضل لك من الجهاد معي»^(٦). ذكره ابن خويز مناداد. ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين: أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبأيه على الهجرة، وترك أبويه يبيكان فقال: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»^(٧). قال ابن المنذر: في هذا الحديث النهي عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع التفسير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع. وذلك بين في حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن ربيعة وأن منادي رسول الله ﷺ نادى بعد ذلك: أن الصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، اخرجوا فأمداوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد» فخرج الناس مشاةً وركباناً في حر شديد^(٨). فدل قوله: «اخرجوا فأمداوا إخوانكم»^(٩) أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع التفسير؛ مع قوله عليه السلام: «إذا استفترتهم فانفروا»^(١٠).

قلت: وفي هذه الأحاديث دليل على أن الفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدم الأهم منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبي في كتاب الرعاية.

- (١) راعية: طامعة في برى تسألني شيئاً النهاية (٢٣٧/٢).
 (٢، ٣) صحيح: البخاري (٢٦٢٠) في الزكاة عن أسماء رضي الله عنها.
 (٤) صحيح: البخاري (٣٠٠٤) في الجهاد والسير، مسلم (٢٥٤٩) في البر والصلة والآداب.
 (٥) صحيح: أبو داود (٢٥٢٨) في الجهاد، النسائي (١٤٣/٧) في البيعة، ابن ماجه (٢٧٨٢) في الجهاد وصححه الألباني هناك.
 (٦) انظر كتر العمال (٤٥٥٢٤) وعزاه لابن لال عن ابن عمر.
 (٧) صحيح: انظر ما قبل السابق.
 (٨، ٩) صحيح: أحمد (٢٩٩/٥) في المسند عن أبي قتادة رضي الله عنه وصححه الألباني هناك.
 (١٠) صحيح: قطعة من حديث البخاري (١٨٣٤) في جزاء الصيد، مسلم (١٣٥٣) في الحج عن ابن عباس رضي الله عنه.

التاسعة: واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية؛ فكان الثوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما. قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنه، ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القربات. وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله عز وجل.

العاشرة: من تمام برهما صلة أهل ودّهما؛ ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أكرم البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولي» (١). وروى أبو أسيد وكان بدرياً قال: كُتِبَ مع النبي ﷺ جالساً فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر والدي من بعد موتها شيء أبرهما به؟ قال: «نعم. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك» (٢). وكان ﷺ يُهدي لصدايقه خديجة برّاً بها ووفاء لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَلْتَمِسُ عِنْدَ الْكَبِيرِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خصّ حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى برّه لتغيّر الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلياً منه؛ فلذلك خصّ هذه الحالة بالذكر. وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستئثار للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقلّ المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر. وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا تَتَهَرَّهْمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُهُ رَغِمَ أَنْفُهُ» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة» (٣). وقال البخاري في كتاب بر الوالدين: حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ. رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ أَبُوَيْهِ عِنْدَ الْكَبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ. وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ» (٤). حدثنا ابن أبي أُوَيْسٍ حَدَّثَنِي أَخِي عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ بِلَالٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هَلَالٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ السَّامِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَحْضَرُوا الْمَنِيرَ» فَلَمَّا خَرَجَ رَقِيٌّ إِلَى الْمَنِيرِ، فَرَقِيٌّ فِي أَوَّلِ دَرَجَةٍ مِنْهُ قَالَ آمِينَ ثُمَّ رَقِيٌّ فِي الثَّانِيَةِ فَقَالَ آمِينَ ثُمَّ لَمَّا رَقِيٌّ فِي الثَّالِثَةِ قَالَ آمِينَ، فَلَمَّا فَرَّغَ وَنَزَلَ مِنَ الْمَنِيرِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ مِنْكَ؟

(١) صحيح: مسلم (٢٥٥٢) في البر والصلة والآداب.

(٢) ضعيف: أبو داود (٥١٤٢) ابن ماجة (٣٦٦٤) كلاهما في الأدب وضعفه الألباني هناك.

(٣) صحيح: مسلم (٢٥٥١) في البر والصلة.

(٤) صحيح: البخاري (٦٤٦) في الأدب المفرد، والترمذي (٣٥٤٥) في الدعوات وصححه الألباني في الموضوعين.

قال: «وسمعتموه؟» قلنا نعم. قال: «إن جبريل عليه السلام اعترض قال: بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رقيت في الثانية قال بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت: آمين فلما رقيت في الثالثة قال بعد من أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخله الجنة قلت آمين»^(١). حدثنا أبو نعيم حدثنا سلمة بن وردان سمعت أنساً رضي الله عنه يقول: ارتقى رسول الله ﷺ على المنبر درجة فقال: آمين ثم ارتقى درجة فقال: آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه: يا رسول الله، علام أنت؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة فقلت آمين»^(٢) الحديث. فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة برهما لثلاث تفتوته بموتهما فيندم على ذلك. والشقي من عقهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ﴾ أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم. وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأف الكلام القدح الرديء الخفي. وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغيائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تقدّرهما وتقول أف^(٣). والآية أعم من هذا. والأف والتف وسخ الأظفار. ويقال لكل ما يضر ويستقل: أف له. قال الأزهري: والتف أيضاً الشيء الحقيقير. وقرئ «أف» منوناً مخفوضاً؛ كما تخفض الأصوات وتونن، تقول: صه ومه. وفيه عشر لغات: أف، وأف، وأفا، وأف، وأف، وأف، وأف، وأف، وإف لك بكسر الهمزة، وأف (بضم الهمزة وتسكين الفاء، وأفا مخففة الفاء. وفي الحديث: «فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف»^(٤). قال أبو بكر: معناه استقذار لما شتم. وقال بعضهم: معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أخذ من الأف وهو القليل. وقال القسبي: أصله نفخك الشيء يسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعده فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار، والتف قلامتها. وقال الزجاج: معنى أف التئن. وقال الأصمعي: الأف وسخ الأذن، والتف وسخ الأظفار؛ فكثرت استعماله حتى ذكر في كل ما يتأذى به. وروي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو علم الله من العقوق شيئاً أردأ من «أف» لذكره فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة»^(٥).

(١) حسن: الهشمي (١٠/١٦٦) في المجمع وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) ضعيف الإسناد والحديث صحيح: الهشمي (١٠/١٦٦) في المجمع وقال: رواه البزار وفيه سلمة بن وردان وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

قلت: والحديث السابق شاهد له، وكذلك ما قبله.

(٣) ضعيف إلى مجاهد: للانقطاع بين ابن جريج ومجاهد، وفي سند آخر ليث بن أبي سليم عنه وهو مختلط جداً أي (ليث بن أبي سليم).

(٤) ورد قوله ﷺ: «أف أف» في سنن أبي داود (١١٩٤) بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه في قصة الكسوف.

(٥) موضوع: وإنما هو عن الحسين بن علي مرفوعاً كما في الدر المنثور للسيوطي (٩/٢٨٩) والدبلي (٦٣/٥٠) في مسند الفردوس.

قال علماؤنا: وإنما صارت قوله «أف» للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنزيل. و «أف» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] أي رفض لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ النهر: الزجر والغلظة. ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي لينا لطيفاً، مثل: يا أبتاه ويا أمه، من غير أن يسميهما أو يكتيهما؛ قاله عطاء. وقال أبو الهذاج التميمي: قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قول: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للمسيء القَطْعُ الغليظ^(١).

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن المسيب. وضربَ خُفْضَ الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذلل: هو اللين. وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وَذِلَّةً وَمَذَلَّةً فَهُوَ ذَالٌ وَذَلِيلٌ. وقرأ سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذَّل» بكسر الذال، ورُوِيَ عَنْ عَاصِمٍ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ: دَابَّةٌ ذَلُولٌ بَيْنَةَ الذَّلِّ. والذَّلُّ فِي الدُّوَابِّ الْمُنْقَادِ السَّهْلِ دُونَ الصَّعْبِ. فَيَنْبَغِي بِحُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يُجْعَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مَعَ أَبِيهِ فِي خَيْرِ ذَلَّةٍ، فِي أَقْوَالِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَنَظَرِهِ، وَلَا يُحَدِّ إِلَيْهِمَا بَصَرَهُ فَإِنَّ تِلْكَ هِيَ نَظَرَةُ الْغَاضِبِ.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد به أمته؛ إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذل في قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده. و «مِن» في قوله: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ لبيان الجنس، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً. ويصح أن يكون لانتهاه الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفقاً بك؛ إذ وليك صغيراً جاهلاً محتاجاً فأترك على أنفسهما، وأسهر ليلهما، وجاعاً وأشبعك، وتعرباً وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما ولياً منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم. قال ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدَ الْوَالِدِ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»^(٢). وسأيت في سورة «مريم» الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قُربى، كما تقدم^(٣). وذكر عن ابن عباس وقاتدة أن هذا كله منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله «أصحاب الجحيم» فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا؛ إلا الترحم لهما بعد

(١) الطبري (٦٧/١٥) في تفسيره.

(٢) صحيح: مسلم في العتق، وقد سبق.

(٣) انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة.

موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما دام حيين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خصّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل إن قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجرّدة، فذكر ذلك لسعد فقال: لِمَ تُمُت، فنزلت الآية^(١). وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين، والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي ﷺ: «من أمسى مُرضياً لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحداً فواحداً. ومن أمسى وأصبح مُسَخَّطاً لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه»^(٢). وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبي ﷺ للرجل: «فأتني بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: «إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه» فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله؟» فقال: سله يا رسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي فقال له رسول الله ﷺ: «إيه، دعنا من هذا. أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك؟» فقال الشيخ: والله يا رسول الله، ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي. قال: «قل وأنا أسمع» قال قلت:

عَدَوْتُكَ مَوْلُودًا وَمِثْلِكَ يَافِعًا	تُعَلِّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ ^(٣)
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبْتَ	لَسُقْمِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلِّمُ ^(٤)
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي	طَرَّقْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمَلُ ^(٥)
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنِّي	لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ وَقْتُ مَوْجِلِ ^(٦)
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي	إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
جَعَلْتَ جِزَائِي غِلْظَةً وَفِظَافَةً	كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُتَنَعِمُ الْمُتَفَضِّلُ

(١) لم أجده مسنداً .

(٢) ضعيف مرفوعاً والأشبه أن يكون موقوفاً: البيهقي (٧٩١٥) في الشعب عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) «غذوتك مولوداً»: أي ربيتك يقال غذوت الصبي باللبن فاغذى أي ربيته به «ومنتك يافعاً»: أي قمت بمؤونتك وأنت شاب، قال ابن منظور: غلام يافع ويفة وأفصة ويقع: شاب: «تعلى العلى والعلل: الشربة الثانية، وقيل: الشرب بعد الشرب تبعاً، يقال: علل بعد نهل. وعله يعله ويعله: إذا سقاها السقية الثانية. «أجنى» أكسب. «وتنهل» النهل: أول الشرب .

(٤) «أتململ» أنقلب، والملال هو الثقل من المرض أو الغم، والفعل من ذلك ملّ، وتملّل الرجل، وتململ. لسان العرب مادة (ملل).

(٥) «عيني» تهمل تفيض وتسيل .

(٦) الردى: الهلاك .

فليتك إذ لم ترعَ حقَّ أبوتَي فعلتَ كما الجارِ المصَاقِبِ يفعلُ (١)
فأوليتني حقَّ الجِوارِ ولم تكن عليّ بمالٍ دون مالك تَبَخَّلُ (٢)

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلايب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك» (٣). قال الطبراني: اللّخميُّ لا يروى يعني هذا الحديث عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد؛ وتفرد به عبيد الله بن خلسة. والله أعلم.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رياء. وقال ابن جبير: يريد البادرة التي تبذر، كالفلثة والزلة، تكون من الرجل إلى أبيه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأساً (٤)؛ قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة. وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى. قال سعيد بن المسيّب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب (٥). وقال ابن عباس رضي الله عنه: الأواب: الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياهُ استغفر منها. وقال عبيد بن عمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل (٦). وهذه الأقوال متقاربة. وقال عون العُقيلي: الأوابون هم الذين يصلون صلاة الضحى. وفي الصحيح: «صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفِصَالُ» (٧). وحقيقة اللفظ أنه من آب يؤوب إذا رجع.

﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ الْمَبْذُورِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٥٨﴾﴾

- (١) المصاقب: القريب. قال ابن الأنباري: الصقب: الملاصقة، والقرب.
- (٢) هذه الأبيات نسبت في أشعار الحماسة لامية بن أبي الصلت. وقال التبريزي: وتروى لابن عبد الأعلى، وقيل لأبي العباس الأعمى. انظر: شرح ديوان الحماسة ٢/٢٦١، وديوان أمية ص ٤٥.
- (٣) ضعيف: والحديث بدون الشعر صحيح: ابن ماجة (٢٢٩١) في التجارات عن جابر رضي الله عنه، و(٢٢٩٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بتصحيح الألباني، وليس فيه ذكر الشعر وقد رواه بهذا المتن الطبراني (٩٤٧/٢) في الصغير وفيه عبيد بن خلسة، قال الهيثمي في المجمع: وفيه من لم أعرفه، والمنكدر بن محمد بن المنكدر ضعيف، والحديث بهذا التمام منكر، وقد تقدمت له طريق مختصرة رجال إسنادها رجال الصحيح. (١.١ هـ) المجمع (٤/١٥٤-١٥٥).
- قلت: قصة الحديث عند ابن ماجة، وأحمد (٢/٢٠٤) في المسند.
- (٤) الطبري (٧٠/١٥).
- (٥) صحيح إليه: السابق (٧١/١٥).
- (٦) انظر الطبري (٧٢/١٥).
- (٧) صحيح: مسلم (٧٤٨) في صلاة المسافرين وقصرها عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي كما راعيت حق الوالدين فصل الرحم، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل. وقال علي بن الحسين في قوله تعالى ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾: هم قرابة النبي ﷺ، أمر ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال، أي من سهم ذوي القربى من الغزوة والغنيمة، ويكون خطاباً للولادة أو من قام مقامهم. وألحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْذُرْ﴾ أي لا تُسرف في الإنفاق في غير حق. قال الشافعي رضي الله عنه: والتبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعهُ في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ وقوله ﴿إِخْوَانٌ﴾ يعني أنهم في حكمهم؛ إذ المبذّر ساع في إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسول لهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم عدا في النار؛ ثلاثة أقوال. والإخوان هنا جمع أخ من غير النسب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي احذروا متابعتة والتشبه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك «إخوان الشيطان» على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه.

الثالثة: من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذّر. ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر. ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذّر، ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد.

﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: وهو أنه سبحانه وتعالى خص نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾. وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم. وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال فقل لهم قولاً ميسوراً.

الثانية: في سبب نزولها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة في الأجر في منعهم لئلا يعينهم على فسادهم^(١). وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾

(١) معضل: وابن زيد إذا أرسل جاء بالعجائب وهو بنحوه عند الطبري (٧٧/١٥) وضعفه هناك وقال: بعيد بالمعنى.

رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴿ قَالَ : لَيْسَ هَذَا فِي ذِكْرِ الْوَالِدَيْنِ ، جَاءَ نَاسٌ مِنْ مُزَيْنَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَحْمِلُونَهُ ؛ فَقَالَ : « لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » فَتَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا فَاَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ . وَالرَّحْمَةُ الْفَيَّةُ .

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ أمره بالدعاء لهم، أي يسر فقرهم عليهم بدعائك لهم. وقيل: ادع لهم دعاء يتضمن الفتح لهم والإصلاح. وقيل: المعنى ﴿ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ ﴾ أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لهم قولاً ميسوراً؛ أي أحسن القول وابتسط العذر، وادع لهم بسعة الرزق، وقل إذا وجدت فعلت وأكرمت؛ فإن ذلك يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة. وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يعطي سكت انتظاراً لرزق يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهة الرد، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»^(١). فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. والضمير في «عنهم» عائد على من تقدم ذكرهم من الآباء والقراة والمساكين وأبناء السبيل. و﴿ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ أي لينا لطيفاً طيباً، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كاليمينون، أي وعداً جميلاً، على ما بيناه. ولقد أحسن من قال:

إِلَّا تَكُنْ وَرَقٌ يَوْمًا أَجُودُ بِهَا لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّي لَيِّنُ العُودِ
لَا يَعدَمُ السَّائِلُونَ الخَيْرَ مِنْ خَلْقِي إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حَسَنُ مُردودي
تقول: يَسَّرْتَ لَكَ كَذَا إِذَا أَعَدَدْتَهُ .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله؛ فضرب له مثل الغلّ الذي يمنع من التصرف باليد. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبستان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى نُديهما وتراقبهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت^(٢) عنه حتى تغشى أنامله وتغفو^(٣) أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قَالَصَتْ^(٤) وأخذت كل حلقة بمكانها. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول^(٥) بأصبعيه هكذا في جيبه فلو رأيت يوسعها ولا تتوسع^(٦).

(١) ضعيف: المحرر الوجيز (١٠/٢٨٢) لابن عطية الأندلسي .

(٢) قوله: « انبسطت عنه » أي انتشرت الجبة عنه .

(٣) قوله: « تغفو أثره » أي تدرسه وتمحوه . فهي لسبوغها تزيل أثر مشيه .

(٤) قوله: « قَالَصَتْ » أي ارتفعت .

(٥) يقول: يأخذ .

(٦) صحيح: البخاري (١٤٤٣) في كتاب الزكاة ، مسلم (١٠٢١) في الزكاة .

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْطُهَا كُلَّ السَّطِّ﴾ ضرب بسط اليد مثلاً لذهاب المال، فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك. وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدخر شيئاً لغد^(١)، وكان يجوع حتى يشد الحجر على بطنه من الجوع^(٢). وكان كثير من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يعنفهم النبي ﷺ ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدة بصائرهم. وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراج ما حوته يده من المال من خيف عليه الحسرة على ما خرج من يده، فأما من وثق بموعد الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم. وقيل: إن هذا الخطاب للنبي ﷺ في خاصة نفسه، علّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاعتقاد. قال جابر وابن مسعود: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسالك كذا وكذا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقول لك اكسني قميصك؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت عرياناً^(٣). وفي رواية جابر: فأذن بلال للصلاة وانتظر رسول الله ﷺ يخرج، واشتغلت القلوب، فدخل بعضهم فإذا هو عار؛ فنزلت هذه الآية^(٤). وكل هذا في إنفاق الخير. وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام، كما تقدم.

الثالثة: نهت هذه الآية عن است فراغ الوجد^(٥) فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين؛ لتلا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لتلا يضيع المنفق عياله. ونحوه من كلام الحكمة: ما رأيت قط سرفاً إلا ومعه حق مضيع. وهذه من آيات فقه الحال فلا يسين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ قال ابن عرفة: يقول لا تسرف ولا تلتف مالك فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف؛ كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَقْلَبُ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤٤] أي كليل منقطع. وقال قتادة: أي نادماً على ما سلف منك^(٦)؛ فجعله من الحسرة؛ وفيه بُعد؛ لأن الفاعل من الحسرة حسر وحسران ولا يقال محسور. والمولوم: الذي يلام على إتلاف ماله، أو يلومه من لا يعطيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْهُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً ﴿٧٦﴾

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٦٢) عن أنس رضي الله عنه .

(٢) صحيح: أحمد (٣/٣٠١) عن جابر رضي الله عنه وصححه المحقق هناك ط - دار الحديث .

(٣) ضعيف: الواحد ص ٢٤١ وفي إسناده قيس بن الربيع وهو ضعيف كما في معرفة النقات (٢/٢٢٠) وكان صدوقاً لكن ابنه أفسد عليه كتبه بأخذه فترك الناس حديثه وضعفه الذهبي (١/٢٢٦) في تذكرة الحفاظ .

(٤) ضعيف جداً: الواحد ص ٢٤١ في أسباب النزول بلا سند .

(٥) الوجد: بضم الواو - كما في اللسان: السعة واليسار .

(٦) انظر الطبري (٧٩/١٥) في تفسيره .

فيه مسألتان:

الأولى: قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أي لم يبق له إلا الملقات؛ وهي الحجارة العظام الملس. قال الهذلي يصف صائداً:
 أتيج لها أقيدرُ ذو حشيف إذا سامت على الملقات ساماً
 الواحدة ملقة. والأقيدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحشيف من الشياب: الخلق. وسامت مرت. وقال شمر: أملق لازم ومتعد، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أوس:
 وأملق ما عندي خطوب تنبلُ

الثانية: قوله تعالى: ﴿خَطَاً﴾ ﴿خَطَاً﴾ قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهزمة والقصر. وقرأ ابن عامر «خَطَاً»^(١) بفتح الخاء والطاء والهزمة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد. وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطي» إذا أتى الذنب على عمد. قال ابن عرفة: يقال خَطِي في ذنبه: خَطَاً إذا أثم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيلاً خطأً عامداً أو غير عامد. قال: ويقال خَطِي في معنى أخطأ. وقال الأزهري: يقال خَطِي يخطأ خطأً إذا تعمد الخطأ؛ مثلُ أثم يَأثم إنمأ. وأخطأ إذا لم يستعمد، إخطاء وخطأ. قال الشاعر:

دَعِينِي إِنَّمَا خَطَيْتِي وَصَوَّبِي عَلَيَّ وَإِنَّمَا أَهْلَكْتُ مَالُ

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضد الصواب. وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمد هو قليل. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «خطأ» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهزمة. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. قال أبو علي: هي مصدر من خاطأ يخاطيء، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأَتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ وَأَخَّرَ يَوْمِي فَلَـمَ أَعْجَلَـ

وقول الآخر في وصف مهابة:

تَخَاطَأَهُ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ وَخَرَطُوهُ فِي مَنَقَعِ الْمَاءِ رَاسِبُ

الجوهري: تخاطأه أي أخطأه؛ وقال أوفى بن مطر المازني:

أَلَا أَبْلَغَا خَلَّتِي جَابِرًا بَأَنَّ خَلِيلِكَ لَمْ يُقْتَبَلْ
 تَخَاطَأَتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ وَأَخَّرَ يَوْمِي فَلَـمَ يَعْجَلْ

وقرأ الحسن «خَطَاً» بفتح الخاء والطاء والمد في الهزمة. قال أبو حاتم: لا يعرف هذا في اللغة وهي غلط غير جائز. وقال أبو الفتح: الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضاً «خَطِي» بفتح الخاء والطاء منونة من غير همزة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

(١) قراءة سبعة: ابن مجاهد ص ٣٨٠ في السبعة.

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى. والزنى يمد ويقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزَّانء فريضة الرَّجْمِ

و ﴿سَبِيلاً﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيله سبيلاً. أي لأنه يؤدي إلى النار. والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار^(١). وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذة ابناً وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أن النبي ﷺ أتى بامرأة^(٢) مُجْحٍ على باب فسطاط فقال: «لعله يريد أن يلم بها» فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن ألعنه لعنأ يدخل معه قبره كيف يُورثه وهو لا يحل له كيف يستخدمه وهو لا يحل له»^(٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهٖ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهٖ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ أي بغير سبب يوجب القتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهٖ﴾ أي لمستحق دمه. قال ابن خُوَيْرِزِمَتَدَاد: الولي يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير. وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهٖ﴾ ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولي، فلا جرم، ليس للنساء حق في القصاص لذلك ولا أثر لعقوبها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد ها هنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فاقضى ذلك إثبات القسود لسائر الورثة؛ وأما ما ذكره من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه، وتتمسته في كتب الخلاف. ﴿سُلْطٰنًا﴾ أي تسليطاً إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية^(٤)؛ قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب

(١) وقد ثبت عند أحمد بسند حسن عن المقداد رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»، وانظر سنن أحمد (٨/٦).

(٢) مُجْحٍ: بضم الميم، وكسر الجيم وآخرها حاء؛ هي التي قربت ولادتها. كما في شرح النووي.

(٣) صحيح: مسلم (١٤٤١) في النكاح عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٤) ضعيف جداً: ذكره الطبري (٨٢/١٥) عن جوير عن الضحاك وجوير تالف مالك.

قال مالك: السلطان أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصاً فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصة. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعي. وقد مضى في سورة «البقرة» هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير^(١). الثاني: لا يقتل بدل وليه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث: لا يمثل بالقاتل؛ قاله طلحة بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهيه عنه. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفى. وقرأ الجمهور «يسرف»^(٢) بالياء، يريد الولي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأول، والمعنى عندنا فلا تسرف أيها القاتل. وقال الطبري: هو على معنى الخطاب للنبي ﷺ والأئمة من بعده^(٣). أي لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أبي «فلا تسرفوا في القتل».

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أي معاناً، يعني الولي. فإن قيل: وكم من ولي مخذول لا يصل إلى حقه. قلنا: المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأيتها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى. وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصوراً. النحاس: ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه. وروي أنه في قراءة أبي «فلا تسرفوا في القتل إن وليّ المقتول كان منصوراً»^(٤). قال النحاس: الأبين بالياء ويكون للولي؛ لأنه إنما يقال: لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولي. وقد يجوز بالتاء ويكون للولي أيضاً، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة. قال الضحاك: هذا أول ما نزل من القرآن في شأن القتل، وهي مكة.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٥)

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع. قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه، فحذف؛ كقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا

(١) انظر السابق (١٥/٨٤-٨٥).

(٢) قراءة سبعية متواترة: السبعة ص ٣٨٠ لابن مجاهد.

(٣) انظر قبل السابق.

(٤) كذا في تفسير الطبري (١٥/٨٥) عن ابن جريج عن عبد الله بن كثير عن مجاهد به، وابن جريج مدلس وقد عنعنه.

يُؤْمَرُونَ ﴿التحريم: ٦﴾ به وقيل: إن العهد يسأل تبيكيتاً لناقضه فيقال: نقضت، كما تسأل المؤءودة تبيكيتاً لوائدها.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الِّسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ﴾ تقدم الكلام فيه أيضاً في الأنعام. وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع، وقد مضى في سورة «يوسف» فلا معنى للإعادة. والقسطاس بضم القاف وكسرهما: الميزان بلغة الروم؛ قاله ابن عزيز. وقال الزجاج: القسطاس: الميزان صغيراً كان أو كبيراً. وقال مجاهد: القسطاس العدل، وكان يقول: هي لغة رومية^(١)، وكان الناس قيل لهم: زِنُوا بِمَعْدِلِهِ فِي وَزْنِكُمْ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «القسطاس» بضم القاف. وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم القسطاس بكسر القاف وهما لغتان.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي عاقبة. قال الحسن: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»^(٢).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿١٨﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعينك. قال قتادة: لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، وسمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمتُ وأنت لم تعلم^(٣)؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما. قال مجاهد: لا تَدْمُ أَحَدًا بما ليس لك به علم^(٤)؛ وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً. وقال محمد بن الحنفية: هي شهادة الزور^(٥). وقال القتيبي: المعنى لا تتبع الحدس والظنون؛ وكلها متقاربة. وأصل القفو البهت والقذف بالباطل؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر بن

(١) ضعيف: للاقطاع بين ابن جريج ومجاهد كما عند الطبري (٨٦/١٥).

(٢) ضعيف: للإرسال خاصة من الحسن البصري فقد كان رحمه الله مدلساً، والتدليس قبح في الرواية لا في الراوي وذكره الطبري (٨٧/١٥) عن قتادة مرسلأ به، وزاد السيوطي في الدر المشور (٣٤٤/٩) عزوه لعبد بن حنيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) ضعيف إلى ابن عباس صحيح إلى قتادة: وفي الإسناد انقطاع كما عند الطبري (٨٨/١٥).

(٤) صحيح إلى مجاهد ضعيف جداً إلى ابن عباس: السابق، وفيه العوفيون عن ابن عباس.

(٥) كذا عند الطبري (٨٨/١٥).

كناثة لا تَقْفُو أَمْنَا ولا نَتَفِي من أَيْبِنَا» (١) أي لا نَسُبْ أَمْنَا. وقال الكُمَيْت:

فلا أرمي البريء بغير ذنب · ولا أَقْفُو الحواصن إن قُفِينَا

يقال: قَفَوْتُهُ أَقْفُوهُ، وَقَفْتُهُ أَقْفُوهُ، وَقَفَيْتُهُ إِذَا تَبَعْتْ أَثْرَهُ. ومنه القافة لتبعهم الآثار وقافية كل شيء آخره، ومنه قافية الشَّعر؛ لأنها تقفو البيت. ومنه اسم النبي ﷺ المَقْفِي (٢)؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشَّبه. يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك. وتقول: قَفَوْتُ الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابن عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعب العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: رَعَمَلِي فِي لَعَمْرِي. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: قفا وقاف، مثل عتا وعات. وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَبَدٌ وَجَدَبٌ. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي «تَقْفُ» بضم القاف وسكون الفاء. وقرأ الجراح «والفاء» بفتح الفاء، وهي لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره.

الثانية: قال ابن خُوَيْرٍ مندداً: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لما قال: «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» دلَّ على جواز ما لنا به علم، فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جار أن يحكم به، وبهذا احتجنا على إثبات القُرعة والخِرص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يُسمَّى علماً واسعاً. فالقائف يلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه. وفي الصحيح عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليّ مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تَرَى» أن مُجَزَّراً نظر إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما فقال: إن بعض هذه الأقدام لمن بعض» (٣). وفي حديث يونس بن يزيد: «وكان مُجَزَّراً قانفاً» (٤).

الثالثة: قال الإمام أبو عبد الله المازري: كانت الجاهلية تقدر في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عيَّاض: وقال غير أحمد كبان زيد أزهَر اللون، وكان أسامة شديد الأدمة؛ وزيد بن حارثة عربي صريح من كلب، أصابه سب، حسبما يأتي في سورة «الأحزاب» إن شاء الله تعالى.

الرابعة: استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد، بترور النبي ﷺ بقول هذا القائف وما كان عليه السلام بالذي يُسرُّ بالباطل ولا يعجبه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثوري وأصحابهم متمسكين بإلغاء النبي ﷺ الشبه في حديث اللعان: على ما يأتي في سورة «النور» إن شاء الله تعالى.

(١) حسن: ابن ماجه (١٢١٢) في الحدود عن الأشعث بن قيس وصححه الألباني هناك .

(٢) وقد ثبت هذا الاسم عند مسلم (٢٣٥٥) في الفضائل عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً (أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة) .

(٣) صحيح: البخاري (٦٧٧٠-٦٧٧١) في الفرائض، مسلم (١٤٥٩) في الرضاع .

(٤) كذا عند مسلم في بعض طرقه (١٤٥٩/٤٠ مكرر) بترقيم عبد الباقي - رحمه الله .

الخامسة: واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخذ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين؛ فالأول: قول الشافعي ومالك رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهور مذهب قَصْرُهُ على ولد الأمة. والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعي رضي الله عنه؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حران فكيف يُلغى السبب الذي خُرج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بُد من اثنين لأنها شهادة؛ وبالأول قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه. وبالثاني قال مالك والشافعي رضي الله عنهما.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع. وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده؛ ونظيره قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١) فالإنسان راع على جوارحه؛ فكانه قال كل هذا كان الإنسان عنه مسؤولاً، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلغ في الحجّة؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي؛ كما قال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتُمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَحُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]. وعبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك، وجعبت في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة من يعقل، فلذلك عبر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: «رَأَيْتُهُمْ» في نجوم، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل؛ وقد تقدم. وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك، وأنشد هو والطبري:

دُمَ المنازل بعد منزلة اللَّوَى والعيش بعد أولئك-الأيام

وهذا أمر يوقف عنده. وأما البيت فالرواية فيه «الأقوام» والله أعلم.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ٥٥ كُلِّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نهي عن الخيلاء وأمر بالتواضع. والمرح: شدة الفرح. وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي^(٢). وقيل: هو البطر والأشر. وقيل: هو النشاط. وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذموم والآخر محمود؛ فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح

(١) صحيح وقد سبق تخريجه في أكثر من مرة.

(٢) كذا عند الطبري (١٥/٨٩) بنحوه، وزاد السيوطي (٩/٣٤٧) في الدر عزوه لابن أبي حاتم.

والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما؛ ففي الحديث الصحيح: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ رَجُلٍ...» (١) الحديث. والكسل مذموم شرعاً والنشاط ضده. وقد يكون التكبر وما في معناه محموداً، وذلك على أعداء الله والظلمة. أسند أبو حاتم محمد بن حبان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مِنَ الْغَيْبَةِ مَا يَبْغِضُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يَحِبُّ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَمِنَ الْخِيَلَاءِ مَا يَحِبُّ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يَبْغِضُ اللَّهُ فَمَا الْغَيْبَةُ الَّتِي يَحِبُّ اللَّهُ الْغَيْبَةَ فِي الدِّينِ وَالْغَيْبَةُ الَّتِي يَبْغِضُ اللَّهُ الْغَيْبَةُ فِي غَيْرِ دِينِهِ وَالْخِيَلَاءُ الَّتِي يَحِبُّ اللَّهُ اخْتِيَالَ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الْقِتَالِ وَعِنْدَ الصَّدَقَةِ وَالْاخْتِيَالَ الَّذِي يَبْغِضُ اللَّهُ الْخِيَلَاءُ فِي الْبَاطِلِ» (٢) وأخرجه أبو داود في مصنّفه وغيره. وأنشدوا:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً . فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت في عزٍّ وحرزٍ ومنعة . فكم مات من قوم همو منك أمنع

الثانية: إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفعاً دون حاجة إلى ذلك داخل في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، يجمّ فيها نفسه في التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل في هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿مَرْحًا﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل. والأول أبلغ، فإن قولك: جاء زيد ركضاً أبلغ من قولك: جاء زيد راكضاً؛ فكذلك قولك مَرْحًا. والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ يعني لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي لن تساوي الجبال بطولك ولا تطاولك. ويقال: خرق الثوب أي شقه، وخرق الأرض قطعها. والخرق: الواسع من الأرض. أي لن تخرق الأرض بكبيرك ومشيك عليها. ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك، أي بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبد ذليل، محاط بك من تحتك ومن فوقك، والمحاط محصور ضعيف؛ فلا يليق بك التكبر. والمراد بخرق الأرض هنا نقيها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهري: معناه لن تقطعها. النحاس: وهذا أبين؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهي الصحراء الواسعة. ويقال: فلان أخرق من فلان، أي أكثر سفراً وعزّة ومنعة. ويروى أن سبأ دوخ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسهلاً وجبلاً، وقتل سادة وسبى وبه سُمِّيَ سبأ ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال: إني لما نلت ما لم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هذه النعم، فلم أر أوقع في ذلك من السجود للشمس إذا أشرفت، فسجدوا لها، وكان ذلك أول عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخيلاء والتكبر والمرح، نعوذ بالله من ذلك.

(١) صحيح: البخاري (٦٣٠٨) في الدعوات، مسلم (٢٧٤٤) في التوبة عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) حسن: أبو داود (٢٦٥٩) في الجهاد، النسائي (٧٨/٥) في الزكاة وحسنه الألباني، وابن حبان (٤٧٦٢) في صحيحه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جملة ما تقدم ذكره مما أمر به ونهى عنه. و﴿ذَلِكَ﴾ يصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق «سَيِّئُهُ» على إضافة سيء إلى الضمير، ولذلك قال: ﴿مَكْرُوهًا﴾ نصب على خبر كان. والسَيِّئُ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قوله ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ مأمورات بها ومنهيات عنها، فلا يخبر عن الجميع بأنه سيئة فيدخل المأمور به في المنهي عنه. واختار هذه القراءة أبو عبيد. ولأن في قراءة أبيي «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ» فهذه لا تكون إلا للإضافة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «سَيِّئُهُ»^(١) بالتثنية؛ أي كل ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ﴾، ثم قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ بالتثنية. وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ إلى هذه الآية كان سيئة لا حسنة فيه، فجعلوا «كلا» محيطاً بالمنهي عنه دون غيره. وقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ليس نعتاً لسيئة، بل هو بدل منه؛ والتقدير: كان سيئة وكنهان مكروهاً. وقد قيل: إن ﴿مَكْرُوهًا﴾ خبر ثان لكان حمل على لفظة كل، و﴿سَيِّئُهُ﴾ محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل. وقال بعضهم: هو نعت لسيئة؛ لأنه لما كان تأنيهاً غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر. وضعف أبو علي الفارسي هذا وقال: إن المؤنث إذا دُكِّرَ فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكراً، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر؛ ألا ترى قول الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

مستقبح عندهم. ولو قال قائل: أبقل أرض لم يكن قبيحاً. قال أبو علي: ولكن يجوز في قوله ﴿مَكْرُوهًا﴾ أن يكون بدلاً من «سَيِّئُهُ». ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ويكون ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في موضع الصفة لسيئة.

الخامسة: استدلل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ وذم المختال. والرقص أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر، فما بالناس لا نقيس القضيبي وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما. فما أقيح من ذي لحية، وكيف إذا كان شبيبة، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصوات نسوان ومزدان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدارين، يَشْمُسُ^(٢) بالرقص شمس البهائم، ويصفق تصفيق النسوان، والله لقد رأيت مشايخ في عمري ما بان لهم سن من التبسم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: ولقد حدثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي رضي الله عنه أنه قال: الرقص

(١) قراءة سبعة: ابن مجاهد ص ٣٨٠ في السبعة.

(٢) يشمس: الشمس، الشموس من الدواب الذي إذا نخس لم يستقر، يقال شمس: شردت وحمجت - كما في اللسان.

حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «الكهف» وغيرها إن شاء الله تعالى.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ١٣٥

قوله تعالى: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام. أي هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ على ما تقدم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من سمع الآية من البشر. والمدحور: المهان المبعذ المقصى. وقد تقدم في هذه السورة. ويقال في الدعاء: اللهم أدر عننا الشيطان؛ أي أبعد.

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَعْتَمُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ١٣٦

هذا يرد على من قال من العرب: الملائكة بنات الله، وكان لهم بنات أيضاً مع البنين، ولكنه أراد: أفأخلص لكم البنين دونهم وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه. ﴿إِنَّكُمْ لَتَعْمُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي في الإثم عند الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ١٣٧

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينا. وقيل كررنا. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ قيل ﴿فِي﴾ زائدة، والتقدير: ولقد صرّفنا هذا القرآن؛ مثل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الاحقاف: ١٥] أي أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة؛ أي غيرنا بين المواضع ليدّكروا ويعتبروا ويتعظوا. وقراءة العامة ﴿صَرَّفْنَا﴾ بالتشديد على التكرير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف. وقوله ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ يعني الأمثال والعبر والحكم والمواظع والأحكام والإعلام. قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى ﴿صَرَّفْنَا﴾ معنيان؛ أحدهما لم يجعله نوعاً واحداً بل وعداً ووعداً ومُحكماً ومتشابهاً ونهياً وأمرأً وناسخاً ومنسوخاً وأخباراً وأمثالاً؛ مثل تصريف الرياح من صَباً ودُبُور وجنوب وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوماً؛ نحو قوله ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ومعناه: أكثرنا صرف جبريل عليه السلام إليك. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي «لِيَذَّكَّرُوا» مخففاً (١)، وكذلك في الفرقان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠]. الباقر بالتشديد. واختاره أبو عبيد؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا. قال المهدوي: من شدد «لِيَذَّكَّرُوا» أراد التدبر. وكذلك من قرأ «لِيَذَّكَّرُوا»

ونظير الأول ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [التقصص: ٥١] والثاني: ﴿وَأَذَكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي التصريف والتذكير. ﴿إِلَّا نَفُورًا﴾ أي تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَآبَتَقُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وهو رد على عبّاد الأصنام. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحفص «يقولون» بالياء. الباقون «تقولون» بالتاء (١) على الخطاب. ﴿إِذَا لَآبَتَقُوا﴾ يعني الآلهة. ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لطلبوا مع الله المنازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض (٢). وقال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه: المعنى إذا لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه، لأنهم شركاؤه (٣). وقال قتادة: المعنى إذا لابتغت الآلهة القرّبة إلى ذي العرش سبيلاً، والتمست الزلّفة عنده لأنهم دونه (٤)، والقوم اعتقدوا أن الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ نزه سبحانه نفسه وقدمه ومجده عما لا يليق به. والتسييح: التنزيه. وقد تقدّم.

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسييح. وقوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمّ بعد ذلك الأشياء كلّها في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. واختلف في هذا العموم، هل هو مخصّص أم لا؛ فقالت فرقة: ليس مخصوصاً والمراد به تسييح الدلالة، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسييح حقيقة، وكلّ شيء على العموم يسبح تسييحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسييح لا يفقهه. وأجيبوا بأن المراد بقوله: ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله: ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ عموم، ومعناه الخصوص في كل حيّ ونام، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول

(١) قراءة سبعة متواترة.

(٢) فتح القدير (٣/٣٢٥) ولم يعزه إلى أحد.

(٣) عزاه السيوطي (٩/٣٤٩) في الدر لابن أبي حاتم عنه.

(٤) صحيح إليه: الطبري (١٥/٩٢).

عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح^(١). وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قُدِّم الخوان: أيسح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يسبح مرة؛ يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح، وأما الآن فقد صار خواناً مدهوناً^(٢).

قلت: ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين فقال: «إنهما يُعَذَّبَان وما يُعَذَّبَان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول» قال: فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبساً». فقوله عليه الصلاة والسلام. «ما لم ييبساً»^(٣) إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جماداً. والله أعلم. وفي مسند أبي داود الطيالسي: فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً وقال: «لعله أن يهون عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شيء»^(٤). قال علماؤنا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن. وقد بينا هذا المعنى في (كتاب التذكرة) بياناً شافياً، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهدى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح.

قلت: ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿ [ص: ١٧ و ١٨]، وقوله: ﴿وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] على قول مجاهد، وقوله: ﴿وَتَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًاءً﴾ (٩) أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ [مریم: ٩٠، ٩١] وذكر ابن المبارك في (دقائقه) أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الجبل يقول للجبل: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاك لله عز وجل؟ فإن قال نعم سر به. ثم قرأ عبد الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مریم: ٨٨] الآية. قال: أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير^(٥). وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضاً: يا جاره، هل مر بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلاً عليها^(٦). وقال رسول الله ﷺ: «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»^(٧). رواه ابن ماجه في سننه، ومالك في موطنه من حديث أبي سعيد الخدري

(١) عزاه السيوطي (٣٥٥/٩) لابن أبي حاتم عن عكرمة .

(٢) البحر المحيط (٤٠/٦) .

(٣) صحيح: وقد سبق .

(٤) هذه رواية الطيالسي (٨٦٧) عن أبي بكرة رضي الله عنه .

(٥) منقطع: كذا عند ابن المبارك (١١٣/١) في الزهد، فعون بن عبد الله روى مراسلاً عن عمر أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كما قال الترمذي والدارقطني جامع التحصيل (٢٤٩/١) .

(٦) ضعيف: السابق (١١٣/١) برقم (١٣٥) وفيه صالح بن بشير المرى وهو ضعيف .

(٧) صحيح: وقد سبق .

رضي الله عنه. وخرَج البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: لقد كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل^(١). في غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسييحهم^(٢). وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»^(٣). قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملة منها في اللّمع اللؤلؤية في شرح العشرنيات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجذع أيضاً مشهور في هذا الباب خرجه البخاري^(٤) في مواضع من كتابه. وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيء من ذلك؛ فكل شيء يسبح للمعوم. وكذا قال النخعي وغيره: هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب. واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسييح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

تُلْقَى بتسييحة من حيث ما انصرفت وتَسْتَقِر حَسّاً الرائي بترَعَادِ

أي يقول من رآها: سبحان خالقها. فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسييح تسييح دلالة فأى تخصيص لداود، وإنما ذلك تسييح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسييح كما ذكرنا. وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسييح كل شيء فالقول به أولى. والله أعلم. وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخلف «تفقهون» بالتاء لتانيث الفاعل. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل والتانيث. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا. ﴿غَفُورًا﴾ للمؤمنين في الآخرة.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ١٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: لما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [السد: ١] أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولوكة وفي يدها فِهْر وهي تقول:

مُذَمَّمًا عَصِينًا وأمره أَيْنَا وَدِينَهُ قَلِينَا

والنبي ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه؛ فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك قال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال. وقرأ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، أخبرت أن صاحبك هجاني فقال: لا

(١) صحيح: البخاري (٣٥٧٩) في المناقب عن ابن مسعود رضي الله عنه منفرداً به.

(٢) صحيح: مسلم (٢٢٧٧) في الفضائل.

(٤) هذا الحديث روى عن جمع كبير من الصحابة فرواه ابن ماجة (١٤١٤) عن أبي بن كعب، والترمذي (٣٦٢٧)

عن أنس، وكذلك ابن ماجة (١٤١٥) والبخاري (٣٥٨٥) عن جابر وعن أنس عن جابر، وأحمد (٢٩٣/٣)

عن جابر والبخاري (٣٥٨٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما وله عدة روايات أخرى.

وربَّ هذا البيت ما هجأك. قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها^(١). وقال سعيد ابن جبير رضي الله عنه: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: لو تَنَحَّيْتَ عنها لثلاثا تُسَمِّعُكَ ما يؤذيك، فإنها امرأة بذيَّة. فقال النبي ﷺ: «إنه سيحبال بيني وبينها» فلم تره. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك فقال: واللَّهِ ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فقالت: وإنك لمصدِّقه؛ فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، أما رأيتك؟ قال: «لا. ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت». وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية: كان النبي ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧] والآية التي في النحل ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعْتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [النحل: ١٠٨]، والآية التي في الجاثية ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٣٢] الآية. فكان النبي ﷺ إذا قرأهن يستتر من المشركين^(٢). قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدثت بهن رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي: وهذا الذي يروونه عن كعب حدثت به رجلاً من أهل الري فأسر بالديلم، فمكث زماناً ثم خرج هارباً فخرجوا في طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه^(٣).

قلت: ويزاد إلى هذه الآي أول سورة يس إلى قوله ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فإن في السيرة في هجرة النبي ﷺ ومقام علي رضي الله عنه في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حَمَةً من تراب في يده، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يروونه، فجعل يثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يَسَ ۝ ١﴾ وألقرآن الحكيم ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تنزيل العزيز الرحيم ﴿٥﴾. إلى قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب^(٤).

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن مشور من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أني هربت أمام العدو وانحزرت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن؛ فعبراً علي ثم رجعا من حيث جاءوا وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبُّه؛ يعنون شيطاناً. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم

(١) الحديث محتمل للتحسين وهو مشهور عند أهل السير: الحاكم (٢/٣٦١) في المستدرک وصححه، وأبو يعلى

(٥٣) وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط بآخره. ورواه البيهقي (٢/١٩٥-١٩٦) من طريقين في الدلائل.

قلت: وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط صحيح ابن حبان (٦٥١١).

(٢) مرسل: سعيد بن جبير تابعي جليل، وانظره موصولاً، الحديث السابق.

(٣) هذا مروى عند الثعلبي والله أعلم بحاله.

(٤) سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك. وقيل: الحجاب المستور طَبِعُ اللّهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة^(١)؛ قاله قتادة. وقال الحسن: أي أنهم لإعراضهم عن قراءة تلك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كان على قلوبهم أغطية. وقيل: نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبي لهب وحويطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمزون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره. وهو معنى القول الأول بعينه، وهو الاظهر في الآية، والله أعلم. وقوله: ﴿مَسُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني: أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستوراً بمعنى ساتر.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَخَدَّهُ وَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في «الأنعام». ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي لثلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني. وهذا رد على القدرية. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً وثقلًا. وفي الكلام إضمار، أي أن يسمعه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخَدَّهُ﴾ أي قلت: لا إله إلا الله وأنت تلو القرآن. وقال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله: ليس شيء أظرد للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخَدَّهُ وَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾. وقال علي بن الحسين: هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسمة. ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ قيل: يعني بذلك المشركين. وقيل: الشياطين. و﴿نُفُورًا﴾ جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال. ويجوز أن يكون مصدرًا على غير الصدر؛ إذ كان قوله ﴿وَلَّوْا﴾ بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورًا.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قيل: الباء زائدة في قوله «به» أي يستمعونه. وكانوا يستمعون من النبي ﷺ القرآن ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم^(٢)؛ قاله قتادة وغيره. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي متناجون في أمرك. قال قتادة: وكانت نجواهم قولهم: إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين، وغير ذلك. وقيل: نزلت حين دعا عتبة أشراف قريش إلى طعام صنعه لهم، فدخل عليهم النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن

(١) بنحوه عند الطبري (٩٥/١٥) في تفسيره.

(٢) انظر الطبري (٩٦/١٥).

ودعاهم إلى الله؛ ففتاجوا؛ يقولون ساحر ومجنون. وقيل: أمر النبي ﷺ علينا أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشرف قريش من المشركين؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله ﷺ. وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم» فأبوا، وكانوا يستمعون من النبي ﷺ ويقولون بينهم متناجين: هو ساحر وهو مسحور؛ فنزلت الآية (١). وقال الزجاج: النَّجْوَى اسم للمصدر؛ أي وإذ هم ذو نجوى، أي سرار. «إِذ يَقُولُ الظَّالِمُونَ» أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما. «إِنْ تَبْعُونَ إِلَّا أَرْجُلًا مَسْحُورًا» أي مطبوعاً قد خيله السحر فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس. وقال مجاهد: «مَسْحُورًا» أي مخدوعاً؛ مثل قوله: «فَأَنَّى تُسْحَرُونَ» [المؤمنون: ٨٩] أي من أين تخذعون. وقال أبو عبيدة: «مَسْحُورًا» معناه أن له سحرًا، أي رثة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب؛ فهو مثلكم وليس بملك. وتقول العرب للجان: قد انتفخ سحره. ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومُسْحَر. قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإتنا عصافيرُ من هذا الأنام المُسْحَرِ

وقال امرؤ القيس:

أرأنا مَوضِعِينَ لأمْرٍ غَيْبٍ وَنُسْحَرَ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

أي نُغَدَّى وَنُعَلَّلُ. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من هذه التي تساميني من أزواج النبي ﷺ، وقد تُوفِّي رسول الله ﷺ بين سَحْرِي وَنَحْرِي (٢).

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ عجبه من صنعهم كيف يقولون تارة ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر. ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي حيلة في صد الناس عنك. وقيل: ضلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلاً، أي إلى الهدى. وقيل: مخرجاً؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنْ أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أي قالوا وهم يتناجون لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما قال هذا. قال ابن عباس: الرُّفَاتُ الغبار (٣). مجاهد: التراب (٤). والرُّفَاتُ ما تكسر ويَلْسِي من كل شيء؛ كالفُتَاتِ والحُطَامِ والرُّضَاضِ؛ عن أبي عبيدة والكسائي والفراء والأخفش. تقول منه: رُفِتَ الشيء رُفَاتًا، أي حُطِمَ؛ فهو مرفوت. ﴿ أَنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

(١) ضعيف: انظر البحر المحيط (٤٣/٦) لأبي حيان وهو بنحوه (٣٢٣٢) عند الترمذي عن ابن عباس بسند ضعفه الألباني هناك.

(٢) صحيح: وقد سبق في صحيح البخاري (٩٤/٣) كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٣) ضعيف: للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما، الطبري (٩٧/١٥) في تفسيره.

(٤) صحيح إليه: الطبري (٩٧/١٥).

خَلَقًا جَدِيدًا ﴿۱﴾ «أَنَا» استفهام والمراد به الجحد والإنكار. و﴿خَلَقًا﴾ نصب لأنه مصدر؛ أي بعثاً جديداً. وكان هذا غاية الإنكار منهم.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿۱﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿۲﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعميز حجارة أو حديداً في الشدة والقوة. قال الطبري: أي إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم. وقال علي بن عيسى: معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ في الإلزام. وقيل: معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم، ولأمانتكم ثم أحياكم. وقال مجاهد: المعنى كونوا ما شتمت فستعادون^(١). النحاس: وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقرؤا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شتمت، فلو كنتم حجارة أو حديداً لبعثتم كما خلقتهم أول مرة. ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: يعني السموات والأرض وأجبال لعظمتها في النفوس. وهو معنى قول قتادة. يقول: كونوا ما شتمت، فإن الله يمتكم ثم يبعثكم. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت^(٢)؛ لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه؛ قال أمية بن أبي الصلت:

وَلِلْمَوْتِ خَلْقٌ فِي النَّفْسِ فَطِيعٌ

يقول: إنكم لو خلقتهم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لا ممتنكم ولا بعتنكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم. وهو معنى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وفي الحديث أنه: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار^(٣)». وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر في صدورهم؛ قاله الكلبي. ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يحركون رؤوسهم استهزاء؛ يقال: نَغَضَ رَأْسَهُ يَنْغِضُ نَغْضًا وَنُغْضًا؛ أي تحرك. وأنغض رأسه أي حركه، كالتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾. قال الراجز:

(١) الطبري (٩٨/١٥).

(٢) هو ضعيف إلى ابن عمر: لوجود عطية العوفي في إسناده، وباقي رجاله ثقات وضعيف إلى ابن عباس ففيه العوفيون بإسنادهم المثلج جهالة وضعفاً وإن كان الحاكم قد رواه (٣٧٧/٢) في المستدرک بسند صححه هو على شرط مسلم وباقي الأقوال عند الطبري (٩٨/١٥).

(٣) صحيح: البخاري (٤٧٣٠) في التفسير، مسلم (٢٨٤٩) في الجنة وصفة نعيمها عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أنغض نحوي رأسه وأقنعا

ويقال أيضاً: نغض فلان رأسه أي حرّكه؛ يتعدى ولا يتعدى، حكاه الأخصش. ويقال: نغضت سنّه؛ أي تحركت وانقلعت.
قال الراجز:

ونغضت من هَرَم أسنانها

وقال آخر:

لما رأني أنغضت لي الراسا

وقال آخر:

لا ماء في المقرّة إن لم تنهض بَسَدَ فوق المَحَالِ النَّغْضِ

المحال والمحالّة: البكرة العظيمة التي يستقى بها الإبل. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي البعث والإعادة وهذا الوقت. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعْلُ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الاحزاب: ٦٣] و ﴿لَعْلُ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وكل ما هو آت فهو قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة. قال ﷺ: «إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم» (١). ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي باستحقاقه الحمد على الإحياء. وقال أبو سهل: أي والحمد لله؛ كما قال:

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لِبِسْتُ، ولا من غَدْرَةٍ اتَّقَعْتُ

وقيل: حامدين لله تعالى بألستكم. قال سعيد بن جبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك؛ ولكن لا يتفهم اعتراف ذلك اليوم (٢). وقال ابن عباس: ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ أي تَقْرُونَ بأنه خالقكم. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته (٤). وقيل: المعنى بقدرته. وقيل: بدعائه إياكم. قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور؛ وبالْحَقِيقَةِ إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويختم به؛ قال الله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ وقال في آخره ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. يعني بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يُكْفَى عن المعذّبين بين النفختين، وذلك أربعون

(١) ضعيف: أبو داود (٤٩٤٨) في الأدب، وضعفه الألباني هناك، والدارمي (٢٩٤/٢) وأحمد (١٩٤/٥) كلهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) كذا ذكره السيوطي (٣٧٥/٩) في الدر المنثور وعزاه لابن أبي حاتم وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٣) ضعيف جداً: الطبري (١٠١/١٥) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٤) صحيح إليه: السابق / نفسه.

عاماً فينأمون؛ فذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مُرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢] فيكون خاصاً للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هَجْعَةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صبح بأهل القبور قاموا مذعورين. وقال قتادة: المعنى أن الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلَّت حين رأوا يوم القيامة ^(١). الحسن: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة ^(٢).

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تقدم إعرابه. والآية نزلت في عمر بن الخطاب. وذلك أن رجلاً من العرب شتمه، وسبه عمر وهم بقتله، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ذكره الثعلبي والماوردي وابن عطية والواحدي ^(٣). وقيل: نزلت لما قال المسلمون: ايذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا، فقال: «لم أؤمر بعد بالقتال؛ فأنزل الله تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قاله الكلبي ^(٤). وقيل: المعنى قل لعبادي الذين اعترفوا بأني خالقهم وهم يعبدون الاصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة. وقيل: المعنى وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الانعام: ١٠٨]. وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله يرحمك الله ^(٥) وهذا قبل أن أمروا بالجهاد. وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامّة في المؤمن والكافر، أي قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة، بحسن الأدب والآفة القول، وخفض الجناح وإطراح نزغات الشيطان؛ وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً» ^(٦). وهذا أحسن، وتكون الآية محكمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدم في آخر الأعراف ويوسف. يقال: نزغ بيننا أي أفسد؛ قاله اليزيدي. وقال غيره: النزغ الإغراء. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي شديد العداوة. وقد تقدم في البقرة. وفي الخبر «أن قوماً جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريباً منهم لا يذكرون الله فحرش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوماً بنا نصلح بين إخواننا فقاموا

(١) صحيح إليه: السابق / نفسه .

(٢) انظر الطبري (١٥/١٠٢) .

(٣) ضعيف : الواحدي ص ٢٤٢ بلا سند فهو ضعيف ، وقد رواه أيضاً عن الكلبي بلا سند وهذا اضمف .

(٤) ضعيف جداً : انظر السابق .

(٥) انظر ما قبل تخريجين .

(٦) صحيح : قطعة من حديث البخاري (٦٠٦٦) في الأدب ، مسلم (٢٥٦٣) في البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان» (١). فهذا من بعض عداوته.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ إن يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ ﴿ هذا خطاب للمشركين، والمعنى: إن يَشَأْ يوفقكم للإسلام فيرحمكم، أو يمتك على الشرك فيعذبكم؛ قاله ابن جريج. و ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى عليم؛ نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى كبير. وقيل: الخطاب للمؤمنين؛ أي إن يَشَأْ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يَشَأْ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ قاله الكلبي. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما وكلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم؛ قاله الكلبي. وقال الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبت كأتني بردة الأمور الماضية وكيل

أي كفيلاً.

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ

زُجُورًا ﴿

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أعاد بعد أن قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ليشير أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]. وكذا النبيون فضل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم. وقد مضى القول في هذا في «المقرة»؛ ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُجُورًا﴾ الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد. أي كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن. وهو في مُحاجة اليهود.

﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية؛ أي ادعوا الذين تعبدون من دونه وزعمتهم أنهم آلهة (٢). وقال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعزيراً (٣) ابن مسعود: يعني الجن (٤). ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي القحط سبع سنين، على قول مقاتل. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السقم إلى الصحة.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿

(١) لم أره فيما بين يدي من مصادر.

(٢) هكذا عن ابن عباس تفسيراً من طريق العوفيين كما عند الطبري (١٣/١٥).

(٣) انظر السابق عن ابن عباس به.

(٤) صحيح: وسيأتي عند الآية (٥٧).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾ صفة ﴿أُولَئِكَ﴾ وضمير الصلة محذوف؛ أي يدعونهم. يعني أولئك المدعوون. و ﴿يَدْعُونَ﴾ خبر، أو يكون حالا، و ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ خبر؛ أي يدعون إليه عبادة أو عبادة إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتاء على الخطأ. الباقون بالياء على الخبر. ولا خلاف في ﴿يَدْعُونَ﴾ أنه بالياء. وفي صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَدْعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نفر من الجن أسلموا وكانوا يعبدون، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أسلمت النفر من الجن. في رواية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نقرأ من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَدْعُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(١). ومنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب؛ ذكره الماوردي. وقال ابن عباس ومجاهد: عزير وعيسى^(٢). و ﴿يَدْعُونَ﴾ يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة. أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يتنون القربة إلى ربهم. والهاء والميم في ﴿رَبِّهِمْ﴾ تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً. وأما ﴿يَدْعُونَ﴾ فعلى العابدين. ﴿يَدْعُونَ﴾ على المعبودين. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾، والمعنى يتنغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله. ﴿وَيُرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي مخوفاً لا أمان لأحد منه؛ فيتنغي أن يحذر منه ويخاف. وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم^(٣). فقيل: المعنى وإن من قرية ظالمة؛ يحوي ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. أي فليتنق المشركون، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح. ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مكتوباً. والسطر: الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر. والسطر [بالتحريك]، مثله.

قال جرير:

من شاء بايعته مالي وخلعتني
ما تكلمت التيمم في ديوانهم سطرًا

(١) صحيح موقوف: البخاري (٤٧١٤) مختصراً في كتاب التفسير ٤، ومسلم (٣٠٠٠/٢٩٤٢٨) في التفسير والطبري (١٠٤/١٠٥٠).

(٢) سبق تضعيفه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الطبري (١٠٧/١٥) في تفسيره.

الخلعة بضم الخاء: خيار المال. والسطر جمع أسطار؛ مثل سبب وأسباب، ثم يجمع على أساطير. وجمع السطر أسطر وسطور؛ مثل أفلس وفلوس. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ.

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ ۖ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۖ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم^(١). قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما. فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً. وقد تقدم في «الأنعام» وغيرها أنهم طلبوا أن يحول الله لهم الصفا ذهباً وتتنحى الجبال عنهم؛ فنزل جبريل وقال: «إن شئت كان ما سألت قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يهلكوا. وإن شئت استأنيت بهم». فقال: «لا، بل استأن بهم»^(٢). و«أن» الأولى في محل نصب بوقوع المنع عليهم، و«أن» الثانية في محل رفع. والباء في «بالآيات» زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء؛ فالعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه. ثم بين ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أي آية دالة مضيئة نيرة على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى. وقد تقدم ذلك. ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي ظلموا بتكذيبها. وقيل: جحدوا بها وكفروا لأنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب. ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال: الأول: العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذبين. الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. الثالث: أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى كهول ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه. الرابع: القرآن. الخامس: الموت الذريع^(٣)؛ قاله الحسن.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَحْوَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم؛ أي أن الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي لتحقق كونه. وعنى بهذا الإهلاك الموعد ما جرى يوم بدر ويوم الفتح. وقيل: معنى ﴿ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أي أحاطت قدرته بهم، فهم في

(١) السابق / نفسه .

(٢) صحيح : صححه العلامة أحمد شاكر (٢٥٨/١) في المسند ، وانظر الطبري (١٥/١٠٧-١٠٨) والنسائي (٣١٠) في تفسيره والحاكم (٢/٣٦٢) و صححه ، والبيهقي (٢/٣٧١) في الدلائل ، والبخاري (٢٢٢٥) (كشف) .

(٣) الطبري (١٥/١٠٩) .

قبضته لا يقدرّون على الخروج من مشيئته^(١)؛ قاله مجاهد وابن أبي نجیح . وقال الكلبي: المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل: المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه؛ أي وما أرسلناك عليهم حفيظاً، بل عليك التبليغ، فبلغ بجدك فلإننا نعصمك منهم ونحفظك، فلا تهبهم، وامض لما أمرك به من تبليغ الرسالة، فقدرتنا محيطة بالكل^(٢)؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة . وفي البخاري والترمذي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس . قال: ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْنُونة فِي الْقُرْآنِ ﴾ هي شجرة الزقوم . قال أبو يعسى الترمذي: هذا حديث صحيح^(٣) . ويقول ابن عباس قالت عائشة ومعوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبیر والضحاك وابن أبي نجیح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسري به . وقيل: كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يلاخل مكة في سنة الحديبية، فردّ فافتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية^(٤)، فلما كان العام المقبل دخلها، وأنزل الله تعالى ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ [الفتح: ٢٧] . وفي هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال في رواية ثالثة: إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان ينزّون على منبره نزو القرّة، فساء ذلك فقيل: إنما هي الدنيا أعطوها، فسرى عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة^(٥) . وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد رضي الله عنه^(٦) . قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بني أمية ينزّون على منبره نزو القرّة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من غمكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً . وقرأ الحسن بن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١١١] . قال ابن

(١) كذا عند الطبري (١٥/١٠٩-١١٠) .

(٢) انظر السابق .

(٣) صحيح: البخاري (٣٨٨٨) في مناقب الأنصار، وفي كتاب التفسير، والترمذي (٣١٣٤) في التفسير .

(٤) ضعيف: الطبري (١٥/١١٢) عن ابن عباس من طريق العوفيين ولا يصح .

(٥) ضعيف: وإن الهيثمي (٥/٢٤٣-٢٤٤) قد صححه في المجمع وعزاه لأبي يعلى، لكنه لا يصح، وسيأتي في سورة القدر إن شاء الله .

وقال ابن كثير عنه (٥/٧١) في تفسير هذه الآية غريب ضعيف .

ورواه الطبري (١٥/١١٢-١١٣) عن محمد بن الحسن بن زبالة عن عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد عن

أبيه عن جده .

قلت: وابن زبالة متروك، وشيخه عبد المهيم ضعيف بالكلية .

(٦) انظر السابق، وانظر تعقيب المصنف هنا .

عطية: وفي هذا التأويل نظراً، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية. قوله تعالى: ﴿وَنُحِفُّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أي ما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة المعونة في القرآن إلا فتنة للناس. وفتنتها أنهم لما حُوفوا بها قال أبو جهل استهزاء: هذا محمد يهودكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والغار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ثم أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرًا وزبدًا وقال لأصحابه: ترقموا (١). وقد قيل: إن القائل ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزبعرى حيث قال: كثر الله من الزقوم في داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن. وجائز أن يقول كلاهما ذلك. فافتن أيضاً لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر ويصدق من سبق له الإيمان. كما روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق. فقيل له: أنه صدق قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير (٢).

قلت: ذكر هذا الخبر ابن إسحاق، ونصه: «قال كان من الحديث فيما بلغني عن مسراه عليه السلام عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأهم هانئ بنت أبي طالب ما اجتمع في هذا الحديث، كلُّ يحدث عن بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به عليه السلام، وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولي الألباب، وهوى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله تعالى على يقين؛ فأسرى به عليه السلام كيف شاء وكما شاء ليُريه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله ابن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أتى رسول الله عليه السلام بالبراق وهي الدابة التي كانت تُجمل عليها الأنبياء قبله تضع محافرها في منتهى طرفها فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يري الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أتى بثلاثة آية: إنا فيه لبن وإناء فيه خمر؛ وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله عليه السلام: «فسمعت قائلاً يقول حين عرضت عليّ: إن أخذ الماء ففرق وعرقت أمته وإن أخذ الخمر فعوي وغوت أمته وإن أخذ اللبن فهدي وهديت أمته قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لي جبريل هديت وهديت أمتك يا محمد» (٣).

(١) مرسل: الطبري (١١٤/١٥) عن قتادة فهو منقطع، وعن الحسن أيضاً والبيهقي (٥٩٨) في البعث، وابن هشام (٣٦٢/١) في سيرة ابن إسحاق.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) هذا الجزء الأخير ثابت من حديث أنس رضي الله عنه في الصحيحين وقد سبق لكن الحديث كله لا يصح لوجود الجهالة بين ابن إسحاق وهذا النفر الكريم من أصحاب رسول الله عليه السلام وانظر سيرة ابن هشام (٣٤/٢) وما بعدها.

قال ابن إسحاق: وحَدَّثَ عن الحسن أنه قال قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم في الحجر جاءني جبريل عليه السلام فمهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً ثم عُدت لمضجعي فجاءني الثانية فمهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئاً فعُدت لمضجعي فجاءني الثالثة فمهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقامت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض بين البغل والحمار في فخذي جناحان يحفز بهما رجله يضع حافره في منتهى طرفه فحملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته» (١).

قال ابن إسحاق: وحَدَّثَ عن قتادة أنه قال: حَدَّثَ أن رسول الله ﷺ قال: «لما دنوت منه لأركبه شمس فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال ألا تستحي يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى ارفض عرقاً ثم قرأ حتى ركبته» (٢).

قال الحسن في حديثه: فمضى رسول الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأهمهم رسول الله ﷺ فصلى بهم ثم أتى بإناءين: في أحدهما خمر وفي الآخر لبن، قال: فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر. قال: فقال له جبريل: هُدِيتَ الْفِطْرَةَ وَهُدِيتَ أُمَّتَكَ وَحُرِّمْتَ عَلَيْكُمُ الْخَمْرَ. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة، فلما أصبح غداً على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر البين والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام، مدبرة شهراً ومقبلة شهراً، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة قال: فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا: هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة. قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، ها هو ذا في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله إن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال «نعم» قال: يا نبي الله، صفه لي فإني قد جئت؟ فقال للحسن: فقال رسول الله ﷺ: «رفع لي حتى نظرت إليه» فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه: صدقت، أشهد أنك رسول الله. كلما وصف له منه شيئاً قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. قال: حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «وأنت يا أبا بكر المصديق فيومئذ سماه الصديق. قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن الإسلام لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْبِرَّوَالْأَلْبَانِ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة (٣). وذكر باقي الإسراء عمن تقدم في السيرة. وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أمية، وأن النبي ﷺ نفى الحكم (٤). وهذا قول ضعيف محدث والسورة مكية، فيبعد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك.

(١) (٢) اجتمعت الجهالة والإرسال فالحدثان ضعيفان .

(٣) ضعيف : فيه العلتان السابقتان .

(٤) سبق تضييفه .

وقد قالت عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنة الله (١). ثم قال: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ ولم يجز في القرآن لعن هذه الشجرة، ولكن الله لعن الكفار وهم أكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن أكلوها. ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون. وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتله، يعني الكشوث (٢). ﴿وَتَخَوَّفُهُمْ﴾ أي بالزقوم. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف إلا الكفر.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٣٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ وَإِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تقدم ذكر كون الشيطان عدو الإنسان، فانحرف الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي من طين. وهذا استفسهام إنكار. وقد تقدم القول في خلق آدم في البقرة، والأنعام مستوفى. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ أي قال إبليس. والكاف توكيد للمخاطبة. ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي فضلت علي. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة. وقد تقدم هذا في الأعراف. و﴿هَذَا﴾ نصب بأرأيت. ﴿الَّذِي﴾ نعت. والإكرام: اسم جامع لكل ما يحمد. وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلت علي، لم فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي أتري هذا الذي كرمته علي لأفعلن به كذا وكذا. ومعنى ﴿لأَحْتَكِنَ﴾ في قول ابن عباس: لأستولين عليهم (٣). وقاله الفراء. مجاهد: لأحتويتهم (٤). ابن زيد: لأضلنهم (٥). والمعنى متقارب، أي لأستاصلن ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحتهم. وروي عن العرب: احتنك الجراد الزرع إذا ذهب به كله. وقيل: معناه لأسوتنهم حيث شئت وأفودنهم حيث أردت. من قولهم: حنكت الفرس أحنكه وأحنكه حنكا إذا جعلت في فيه الرسن. وكذلك احتنكه. والقول الأول قريب من هذا، لأنه إنما يأتي على المزرع بالحنك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سنةً قد أجهفت جهدا إلى جهد بنا وأضعفت

واحتنكت أموالنا واجتلفت

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وإنما قال إبليس ذلك ظنا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أو علم من طبع البشر

(١) سيأتي في موضعه إن شاء الله عند الآية (١٧) من سورة الأحقاف .

(٢) ضعيف الإسناد : ففيه مجهول وهو مولى بني هاشم ، وفيه عننة ابن أبي ذئب ، الطبري (١١٥/١٥) قلت : والكشوث : نبت يتعلق بأغصان الشجر ولا جذر له في الأرض .

(٣) منقطع : بين علي بن أبي طلحة الوالبي وابن عباس رضي الله عنهما انظر السابق (١١٧/١٥) .

(٤) ، (٥) السابق (١١٧/١٥) .

تركب الشهوة فيهم، أو بنى على قول الملائكة: ﴿تَجَمَّلُ فِيهَا مِنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ . وقال الحسن: ظن ذلك لانه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزماً.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ هذا أمر إهانة، أي اجهد جهدك فقد أنظرناك. ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم. ﴿مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي وافراً^(١)، عن مجاهد وغيره. وهو نصب على المصدر، يقال: وفرته أفره وفرأ، ورفر المال بنفسه يفر وفوراً فهو وافر، فهو لازم ومتعد.

﴿وَأَسْتَفْرِزُ مَنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْرِزُ﴾ أي استزل واستخف، وأصله القطع، ومنه تفرز الثوب إذا انقطع. والمعنى استزله بقطعك إياه عن الحق. واستفرزه الخوف أي استخفه. وقعد مُسْتَفْرِزاً أي غير مطمئن. ﴿وَأَسْتَفْرِزُ﴾ أمر تعجيز، أي أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فافعل ما شئت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ وصوته كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى^(٢)، عن ابن عباس. مجاهد: الغناء والمزامير واللهاو^(٣). الضحاك: صوت المزمار^(٤). وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزمر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزئوا، ذكره الغزوي. وقيل: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ بوسوستك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة من السائق، يقال: أجلب إجلاباً. والجلبُ والجلبة: الأصوات، تقول منه: جلبوا بالتشديد. وجلب الشيء يجلبه ويجلبه جلباً وجلباً. وجلبت الشيء إلى نفسي واجتلبته بمعنى. وأجلب على العدو إجلاباً، أي جمع عليهم. فالمعنى أجمع عليهم كلما تقدر عليه من مكابذك. وقال أكثر المفسرين: يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجاله^(٥). وروى سعيد بن جبير

(١) صحيح إلى مجاهد: السابق / نفسه .

(٢) منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما: الطبري (١١٨/١٥) .

(٣) ضعيف إلى مجاهد: فيه ليث بن أبي سليم وهو صدوق مختلط جداً .

(٤) سبق أن هذه الأخبار لا تصح ولا دليل عليها .

(٥) ضعيف إلى ابن عباس ومجاهد: في الإسناد إلى ابن عباس على بن أبي طلحة عنه وفيه انقطاع، وفي الإسناد إلى مجاهد، ليث بن أبي سليم وهو مختلط جداً، وفيه إسناد آخر ضعيف أيضاً، انظر الطبري

ومجاهد عن ابن عباس قال: كل خيل سارت في معصية الله، وكل رجل مشت في معصية الله، وكل مال أصيب من حرام، وكل ولد بغية فهو للشيطان^(١). والرجل جمع راجل، مثل صخب وصاحب. وقرأ حفص «ورجلك» بكسر الجيم وهما لغتان، يقال: رجل ورجل بمعنى راجل. وقرأ عكرمة وقاتدة «ورجالك» على الجمع.

الرابعة: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في ذلك. فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله^(٢)، قاله الحسن. وقيل: هي التي أصابوها من غير حلها^(٣)، قاله مجاهد. ابن عباس: ما كانوا يحرمونه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحلم^(٤). وقاله قاتدة. الضحاك: ما كانوا يذبحونه لألتهم^(٥). والأولاد قيل: هم أولاد الزنى، قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس^(٦). وعنه أيضاً هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم^(٧). وعنه أيضاً: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد الآلات وعبد الشمس ونحوه^(٨). وقيل: هو صبغة أولادهم في الكفر حتى هوودهم ونصروهم، كصنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم^(٩)، قاله قاتدة. وقول خامس روي عن مجاهد قال: إذا جامع الرجل ولم يسم أنطوى الجنان على إحليله فجامع معه، فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنُّوْا لِمَنْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانًّا﴾^(١٠) وسيأتي. وروي من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن فيكم مغرّبين» قلت: يا رسول الله، وما المغرّبون؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجن»^(١١). رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. قال الهروي: سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب. قال الترمذي الحكيم: فللجن مسامة بآدم في الأمور والاختلاط، فمنهم من يتزوّج فيهم، وكنت بلقيس ملكة سباً أحد أبويها من الجن. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَعِدُّهُمْ﴾ أي منتهم الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم. يقويه قوله تعالى: ﴿بِعِدُّهُمْ وَيُنْيِهِمْ وَمَا وَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِذْ غُرِّرًا﴾ أي باطلاً. وقيل «وَعِدُّهُمْ» أي عدهم النصرة عسى من أرادهم بسوء. وهذا الأمر للشيطان تهدد ووعيد له. وقيل: استخفاف به وبمن اتبعه.

السادسة: في الآية ما يدل على تحريم المزامير والغناء واللّهو، لقوله: ﴿وَأَسْتَفْرِزَ مَنْ اسْتَظَمَتْ مِنْهُمْ﴾

(١) عزاه السيوطي (٣٩٥/٩) في الدر اللغريسي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) صحيح إليه: الطبري (١١٩/١٥) في تفسيره.

(٣) انظر الطبري (١١٩/١٥) بنحوه عن مجاهد.

(٤) ضعيف إلى ابن عباس للجهالة فيه: الطبري (١٢٠/١٥) ورواه أيضاً عن قاتدة هناك.

(٥) السابق (نفسه).

(٦) السابق / نفسه وهو ضعيف إلى ابن عباس لأن فيه إسناد العوفيين وفيه جهالة وضعف.

(٧، ٨) ضعيفان: في الأول علي بن أبي طلحة عنه منقطعاً، وفي الثاني أبو صالح عنه ولا يصح، وانظر السابق

(١٢١/١٥).

(٩) حسن إليه: ٤ الطبري (١٢١/١٥) في تفسيره.

(١٠) هذا بعيد: انظر البحر المحيط (٢٥٩/٦) لأبي حيان

(١١) ضعيف: أبو داود (٥١٠٧) في الأدب عن عائشة رضي الله عنها وضعفه الألباني هناك.

بصوتك وأجلب عليهم ﴿ على قول مجاهد . وما كان من صوت للشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزه عنه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمارة فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : يا نافع أسمع؟ فأقول نعم ، فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله ﷺ سمع صوت زمارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا (١) فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «لقمان» إن شاء الله تعالى .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون وقد تقدم الكلام فيه . ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي عاصماً من القبول من إبليس ، وحافظاً من كيدِه وسوء مكره .

﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ الإزجاء : السوق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾ . وقال الشاعر :

يأبها الراكب المزجبي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوتُ

وإزجاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع ، وقد تقدم . والبحر الماء الكثير عذباً كان أو ملحاً ، وقد غلب هذا الاسم على المشهور . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ، أي ربكم الذي أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئاً . ﴿ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي في التجارات . وقد تقدم . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ ﴿ الضُّرُّ ﴾ لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجري . وأحوال حالاته اضطرابه وتموجه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ﴿ ضَلَّ ﴾ معناه تَلَفَ وَقُفِدَ ، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلهاً من دون الله . والمعنى في هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلاً ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام ، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أي عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفوراً للنعم إلا من عصمه الله ، فالإنسان لفظ الجنس .

(١) صحيح : أبو داود (٤٩٢٤) في الأدب وصححه الالباني هناك .

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ بين أنه قادر على هلاكهم في البر وإن سلموا من البحر. والخسْفُ: أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: بثر خسيْفٌ إذا انهدم أصلها. وعين خاسف أي غارت حدقتها في الرأس. وعَيْنٌ من الماء خاسفة أي غار ماؤها. وخسفت الشمس أي غابت عن الأرض. وقال أبو عمرو: والخسيف البثر التي تخفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة. والجمع خسف. وجانب البر: ناحية الأرض؛ وسماه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً. وأيضاً فإن البحر جانب البرّ جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذّروهم ما أمنوه من البر كما حذّروهم ما خافوه من البحر. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني ريحاً شديدة، وهي التي ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار، قاله أبو عبيدة والقشيري. وقال قتادة: يعني حجارة من السماء تحصيهم^(١)، كما فعل بقوم لوط. ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد: حاصب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء حاصب وحصبة أيضاً. قال لبيد:
جرت عليها أن خوت من أهلها أذبالها كلُّ عصفوفٍ حصبها
وقال الفرزدق:

مستقبلين شمّال الشام يضرينا بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا
تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ يعني في البحر. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة؛ من قصف الشيء يقصفه؛ أي كسره بشدة. والقصف: الكسر؛ يقال: قصفت الريح السفينة. وريح قاصف: شديدة. ورعد قاصف: شديد الصوت. يقال: قصف الرعد وغيره قصيفا. والقصيف: هشيم الشجر. والقصف التكرس. والقصف أيضاً: اللّهُم واللعب، يقال: إنها مؤلدة. ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بكفركم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «تُخْسِفُ بِكُمْ» أو تُرْسِلُ عَلَيْكُمْ «أَنْ نُعِيدَكُمْ» «فَنُرْسِلُ عَلَيْكُمْ» «فَنُغْرِقَكُم» بالنون في الخمسة^(٢) على التعظيم، ولقوله: «علينا» الباقون بالياء لقوله في الآية قبل: «إياه». وقرأ أبو جعفر وشيبة ورؤيس ومجاهد «فَنُغْرِقَكُم» بالتاء نعتاً للريح. وعن الحسن وقاتدة «فَيُغْرِقَكُم» بالياء مع التشديد في الراء. وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفي كل القرآن. وقيل: إن القاصف المهلكة في البر، والعاصف المغرقة في البحر؛

(١) انظر الطبري (١٥/١٢٣) في تفسيره.

(٢) قراءة متواترة.

حكاه الماوردي. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال مجاهد: ثائراً^(١). النحاس: وهو من الثار. وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره: تبع وتابع؛ ومنه «اتباع بالمعروف» أي مطالبة.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية. لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضاً. «كرماً» تضعيف كرم؛ أي جعلنا لهم كرمأ أي شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة. وغاية كل حيوان يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مركب. وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالضم. وروي عن ابن عباس؛ ذكره المهدي والنحاس؛ وهو قول الكلبي ومقاتل؛ ذكره الماوردي. وقال الضحاك: كرمهم بالنطق والتميز. عطاء: كرمهم بتعديل القامة وامتدادها. يمان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمداً ﷺ منهم. وقيل: أكرم الرجال باللحى والنساء بالدواب. وقال محمد بن جرير الطبري: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم. وقيل: بالكلام والخط. وقيل: بالفهم والتميز. والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله؛ إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء. وما تقدم من الأقوال بعضه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يفضل بها ابن آدم أيضاً؛ كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه. والله أعلم.

الثانية: قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستنون في قوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بني آدم ما خصهم به من سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضول، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرض الآية لذكرهم، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل العكس، ويحتمل التساوي، وعلى الجملة فالكلام لا يتهي في هذه المسألة إلى القطع. وقد تحاشى قوم من الكلام في هذا كما تحاشوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على

(١) منقطع: بين ابن جريج ومجاهد: الطبري (١٢٥/١٥) في تفسيره.

بعض؛ إذ في الخبر: «لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضلوني على يونس بن مَتَّى» (١). وهذا ليس بشيء؛ لوجود النص في القرآن في التفضيل بين الأنبياء. وقد بيناه في «البقرة» ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني لذيذ المطاعم والمشارب. قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي على البهائم والدواب والوحش والطيور بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة.

الرابعة: هذه الآية ترد ما روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحرموا أنفسكم. طيب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجري في العروق منها» (٢). وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأن القرآن يرده، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرر في غير موضع. وقد حكى أبو حامد الطوسي قال: كان سهل يقتات ورق التبن مدة، وأكل دُقاق ورق التبن ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنا قال: صحبت ذا النون من إخميم إلى الإسكندرية، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصاً وملحاً كان معي، وقلت: هلّم. فقال لي: ملحك مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لست تفلح فنظرت إلى مزودته وإذا فيه قليل سويقٍ شعير يستف منه. وقال أبو يزيد: ما أكلت شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الأدمي بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف مزاجه؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر. وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قويت حكمة الباري سبحانه بردها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل. ومعلوم أن البدن مطية الأدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبُلغ. وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبداً وعسلًا وخبز حواري، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالودج ثم يقوم إلى الصلاة. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة والأعراف وغيرها. والاول غلوة في الدين إن صح عنهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِأُمَّهَاتِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِأُمَّهَاتِهِمْ﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِأُمَّهَاتِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) موضوع: ابن الجوزي (٣/ ٣٠) في الموضوعات، وابن عراق (٢/ ٢٤٠) في تنزيه الشريعة.

ستون فراعماً، ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألا فينطلق إلى أصحابه فيروّنه من بعيد فيقولون اللهم اثنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أوشروا لكل منكم مثل هذا. قال وأما الكافر فيسود وجهه ويمدّ له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا. قال: فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه. فيقول أبعدم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا^(١). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. ونظير هذا قوله: ﴿تَوَدَّى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والكتاب يسمى إماماً؛ لأنه يرجع إليه في تعرف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: ﴿إِمَامِهِمْ﴾ أي بكتابهم، أي بكتاب كل إنسان منهم الذي فيه عمله؛ دليلاً ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِمِثْنِهِ﴾. وقال ابن زيد: بالكتاب المنزل عليهم. أي يدعى كل إنسان بكتابه النبي كان يتلوه؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة، وأهل القرآن بالقرآن؛ فيقال: يا أهل القرآن، ماذا عملتم، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه وهكذا. وقال مجاهد: ﴿إِمَامِهِمْ﴾ ببيتهم، والإمام من يؤتم به. فيقال: هاتوا متبعي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متبعي موسى عليه السلام، هاتوا متبعي الشيطان، هاتوا متبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم. وقاله قتادة. وقال علي رضي الله عنه: بإمام عصرهم. وروي عن النبي ﷺ في قوله: «يوم ندعو كل أناس بإمامهم» فقال: «كل يدعى بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبئهم فيقول هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمدا عليهم أفضل الصلوات والسلام فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلالة إمام هدى وإمام ضلالة»^(٢). وقال الحسن وأبو الجليلية: ﴿إِمَامِهِمْ﴾ أي بأعمالهم. وقاله ابن عباس. فيقال: أين الراضون بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور. وقيل: بمداهبهم؛ فيدعون بمن كانوا يأتمون به في الدنيا: يا حنفي، يا شافعي، يا معتزلي، يا قدري، ونحوه، فيتبعونه في خير أو شر أو على حق أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة. وقد تقدم. وقال أبو هريرة: يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهل الجهاد من باب الجهاد... الحديث بطوله. أبو سهل: يقال أين فلان المصلي والصوم، وعكسه الدفاف والنمام، وقال محمد بن كعب: ﴿إِمَامِهِمْ﴾ بأمهاتهم. وإمام جمع أم. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدهما لأجل عيسى. والثاني إظهار لشرف الحسن والحسين. والثالث لتلا يفترض أولاد الزنى.

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان» خرجه مسلم والبخاري. فقوله: «هذه غدرة فلان بن فلان»^(٣) دليل على أن الناس يدعون في الآخرة

(١) ضعيف : الترمذي (٣١٣٦) في التفسير وضعفه الألباني هناك .

(٢) ضعيف جداً : الديلمي (٨٩٨٢) في مسند الفردوس عن علي رضي الله عنه وفيه كذاب .

وهو موقوف عن ابن مردويه ومرفوع أيضاً عن علي كما في الدر المنثور (٤٠٤/٩) .

(٣) صحيح : وقد سبق .

بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يراد على من قال: إنما يدعون بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سترًا على آبائهم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هذا يقوي قول من قال: ﴿بِأَمَامِهِمْ﴾ بكتابتهم ويقويه أيضاً قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. ﴿فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلِّمُونَ فِيهِ لِأَنَّهُ الَّذِي فِي شِقْوَةِ النَّوَاةِ. وقد مضى في «النساء».

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ﴾ أي في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في أمر الآخرة ﴿أَعْمَىٰ﴾. وقال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال: اقرأوا ما قبلها ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى ﴿تَفْضِيلًا﴾. قال ابن عباس: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلاً. وقيل: المعنى من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى. وقيل: المعنى من كان في الدنيا التي أمهل فيها وفتح له ووعد بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى. وقال الحسن: من كان في هذه الدنيا كافراً ضالاً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً. وقيل: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيام أعمى، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ الآيات. وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمَاءٌ وَبُكَامٌ وَصُمٌّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾. وقيل: المعنى في قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ في جميع الأقوال: أصد أعمى؛ لأنه من عمى القلب، ولا يقال مثله في عمى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خلقة بمنزلة اليد والرَّجُل، فلم يقل ما أعماه كما لا يقال ما أيداه. الأخفش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى. وقد اجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأن فعله عمى وعشى. وقال الفراء: حدثني بالشام شيخ بصرى أنه سمع العرب تقول: ما أسود شعره. قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر وفي المخازي لكم أشباح أشباح
أما الملوك فانت اليوم الأمهم لوما وأبيضهم سربال طبلخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف الحرفين «أعمى» و«أعمى» وفتح الباقون. وأمال أبو عمرو الأول وفتح الثاني. «وأضل سبيلاً» يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَخْذُولَكَ خَلِيلًا ۗ﴾

قال سعيد بن جبیر: كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود في طوافه، فممنعه قريش وقالوا: لا ندعك تستلم حتى تلم بالهتنا. فحدث نفسه وقال: «ما علي أن ألم بها بعد أن يدعونني استلم الحجر

والله يعلم أني لها كاره» فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية^(١)؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثقيف، أتوا النبي ﷺ فسألوه شططاً وقالوا: متعنا بأهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرّم وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم، فهم رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية^(٢). وقيل: هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: اطرد عنا هؤلاء السُّقَّاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهم بذلك حتى نُهي عنه^(٣). وقال قتادة: ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه، ويسودّونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنتا سيّدنا يا سيّدنا؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية^(٤). ومعنى «لِيَفْتُونَكَ» أي يزيلونك. يقال: فتنت الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهروي. وقيل يصرفونك، والمعنى واحد. «عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن. «لِنَقْتَرِي عَلَيْنا غَيْرَهُ» أي لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك، وهو قول ثقيف: وحرّم وادينا كما حرمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرني بذلك حتي يكون عذراً لك. «وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلاً» أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، أي والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة [بالضم] وهي الصداقة لممايلته لهم. وقيل: «لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلاً» أي فقيراً. مأخوذ من الخلة [بفتح الخاء] وهي الفقر لحاجته إليهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ بُنِنَاكَ لَقَد كِدْتُمْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُرّاً تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٥﴾

قوله تعالى: «وَلَوْلَا أَنْ بُنِنَاكَ» أي على الحق وعصمتك من موافقتهم. «لَقَد كِدْتُمْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ» أي تميل. «شَيْئاً قَلِيلاً» أي ركوناً قليلاً. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ لَا تَكَلِّنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٥). وقيل: ظاهر الخطاب للنبي ﷺ وباطنه إخبار عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي كادوا يخبرون عنك بأنك ملّت إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازاً واتساعاً؛ كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت، ذكره المهدوي. وقيل: ما كان منه هم بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل

(١) مرسل: الطبري (١٢٩/١٥) في تفسيره.

(٢) قال السيوطي في باب النقول ص ١٢٤: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها، وهو إسناد جيد، وله شاهد (أ.هـ).

قلت: وذكره الطبري (١٣٠/١٥) في تفسيره بسند فيه العوفيون وفيه جهالة وضعف.

(٣) معاني القرآن (١٧٩/٤) للنحاس.

(٤) مرسل: الطبري (١٣٠/١٥) في تفسيره.

(٥) هذا مرسل: السابق (١٣١/١٥) وفيه أبو هلال الراسبي عن قتادة وأبو هلال ضعيف وللدحديث رواية موصولة أخرى.

إلى موافقتهم، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل^(١)؛ ذكره القشيري. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لثلاث يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه^(٢).

وقوله: ﴿إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِغْفَ الْحَمَاءِ وَضِغْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لو ركنت لأذقتك مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة^(٣)، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا ضاية الوعيد. وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ هَٰكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ وضمف الشيء مثله مرتين؛ وقد يكون الضعف النصيب؛ كقوله عز وجل: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي نصيب. وقد تقدّم في الاعراف.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

هذه الآية قيل إنها مدنية؛ حسبما تقدّم في أول السورة. قال ابن عباس: حسدت اليهود مقام النبي ﷺ بالمدينة فقالوا: إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام، فإن كنت نبياً فالحق بها؛ فإنك إن خرجت إليها صدقتك وأمانا بك؛ فوقع ذلك في قلبه لما يُحب من إسلامهم، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية^(٤). وقال عبد الرحمن بن غنم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بعدما ختمت السورة، وأمر بالرجوع^(٥). وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقادة: نزلت في هم أهل مكة بإخراجها، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج^(٦)، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة، ولم يجر لليهود ذكر. وقوله: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مكة. كقوله: ﴿فَلَنُأَخْرِجَنَّكَ مِنْهَا وَإِن كَانَ لَبَدًّا﴾ أي أرض مصر؛ دليلاً ﴿وَكَايِنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ يعني مكة. معناه: هم أهلها بإخراجها؛ فللهذا أضاف إليها وقال: ﴿أَخْرِجْنَا﴾. وقيل: هم الكفار كلهم أن يستغفروا من أرض العرب بتظايرهم

(١) قال ابن عطية - رحمه الله - في المحرر الوجيز ٣٢٩/١: ... وهذا الهم من النبي ﷺ إنما كان خطرة مما لا يمكن دفعه ولذلك قيل: ﴿كدت﴾ وهي تعطي أنه لم يقع ركون، ثم قيل ﴿شيقاً قليلاً﴾ إذا كانت المغاربة التي تتضمنها ﴿كدت﴾ قليلة خطيرة لم تتأكد في النفس، وهذا الهم هو كهو يوسف عليه السلام والقول فيهما واحد. ا. هـ.

(٣) هذا ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (١٣١/١٥) في تفسيره من طريق العوفيين بسند فيه جهالة وضعف.

(٤) ضعيف: الواحد ص ٢٤٤ بلا سند، وقال ابن كثير: وهذا القول ضعيف.

(٥) ضعيف: الواحد ص ٢٤ وفيه شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم وشهر ضعيف على الأرجح، وهو عند البيهقي (٢٥٤-٢٥٥/٥) في الدلائل، وابن عساكر (١٧٨/١) في تاريخ دمشق ثم قال ابن كثير (٧٧/٥) في تفسيره: وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [التوبة: ٢٣]... وغزاها ليقتلهم ويستقيم بمن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم (أ. هـ).

(٦) صحيح مرسل إليها: الطبري (١٣٢-١٣٣/١٥) والواحد ص ٢٤٤ في أسباب النزول.

عليه فمعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يمهّلوا، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . وقرأ عطاء بن أبي رباح «لا يلبثون» الباء مشددة. «خلفك» نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي «خلافك» واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ومعناه أيضاً بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَّتِ الدِّيَارُ خِلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا

بسط البواسط؛ في المارودي. يقال: شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تلقى الشاطبة إلى المنقبة. وقيل: «خلفك» بمعنى بعدك. ﴿خِلافَكَ﴾ بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباري. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن المدة التي لبثوا بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش.

الثاني: ما بين ذلك وقتل بني قريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود.

﴿سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾ أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا؛ فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ ظاهه الفراء. وقيل: انتصب على معنى سننا سنة من قد أرسلنا. وقيل: هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقدير لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويوقف على الأول والثاني. ﴿بَلِّغْ مِنْ رُّسُلِنَا﴾ وقف حسن. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لا خلف في وعدما.

﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ الْفَجْرَ كَانَ

مَشْهُودًا﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لما ذكر مكاييد المشركين أمر نبيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثله ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَاكَ بِضَبِّكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. وتقدم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة. وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة. واختلف العلماء في الدلوك على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبد السماء^(١)؛ قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني أن الدلوك هو الغروب؛ قاله عليّ وابن مسعود وأبي بن كعب، وروي عن ابن عباس^(٢). قال المارودي: من جعل الدلوك اسماً لغروبها فلان الإنسان

(١) صحيح إليهم جميعاً: الطبري (١٥/١٣٥-١٣٦) إلا ابن مسعود فإنه روى بأسانيد فيها الصحيح والمنقطع.

(٢) انظر السابق.

يدلُّك عينيه براحتته لتبينها حالة المغرب، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يدلُّك عينيه لشدة شعاعها. وقال أبو عبيد: دلوكها غروبها. ودلكتُ براح يعني الشمس؛ أي غابت. وأنشد قُطرب:

هذا مُقامُ قَدَمِي رَبَّاحٍ ذَبَّبتُ حتى دَلَّكتُ بَرَّاحٍ

براح [بفتح الباء] على وزن حَزَام وقَطَام ورقاس اسم من أسماء الشمس. ورواه الفراء [بكسر الباء] وهو جمع راحة وهي الكف؛ أي غابت وهو ينظر إليها وقد جعل كفَّه على حاجبه. ومنه قول العجاج:

والشمس قد كادت تكون دَنَقًا أَدفعها بالراح كي تَرَحَّلَفًا

قال ابن الأعرابي: الزُّحْلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزَّحْلَفَة كالدَّحْرَجَة والدَّفْع؛ يقال: زحلفته فترَّحَّلَف. ويقال: دلكت الشمس إذا غابت. قال ذو الرُّمَّة:

مصاييح ليست باللواتي تقودها نجومٌ ولا بالأقلام الدوالك

قال ابن عطية: الدلوك هو الميل في اللغة فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها في حالة ميل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة في غَسَق الليل. وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوك كله؛ قاله الأوزاعي وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك والشافعي في حالة الضرورة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس ميلها، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته^(١). وقال أبو عبيدة: الغسق سواد الليل. قال ابن قيس الرُّقِيَّات:

إن هذا الليل قد غَسَقًا واشتكتُ الهَمَّ والأرقًا

وقد قيل: غسق الليل مغيب الشفق. وقيل: إقبال ظلمته. قال زهير:

ظَلَّتْ تجود يداها وهي لاهية حتى إذا جنح الإظلام والغسق

يقال: غسق الليل غسوقا. والغَسَق اسم بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال: غَسَقَت العين إذا سالت، تَغَسِق. وغَسَق الجرح غَسَقَانَا، أي سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذن، أي أخرج المغرب إلى غَسَق الليل. وحكى الفراء: غَسَق الليل وأغسق، وظلم وأظلم، ودجا وأدجى، وغَسَس وأغسس، وغَشَّش وأغشش. وكان الربيع بن خثيم يقول لمؤذنه في يوم غيم: أغسق أغسق. يقول: أخرج المغرب حتى يَغَسِق الليل، وهو إظلامه.

الثالثة: اختلف العلماء في آخر وقت المغرب؛ فقيل: وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بين في إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعي في المشهور عنه أيضاً، وبه قال الثوري. وقال مالك في الموطأ: فإذا غاب الشفق فقد خرجت من وقت المغرب ودخل وقت

(١) هذا إسناد؛ وبعضه عند مالك ضعيفاً، حديث (٢٠) في كتاب وقوت الصلاة.

العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حي وإسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله. ولحديث أبي موسى، وفيه: أن النبي ﷺ صلى بالساتل المغرب في اليوم الثاني فأخر حتى كان عند سقوط الشفق^(١)؛ خرجه مسلم. قالوا: وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخر بالمدينة وإمامة جبريل بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخ لما قبله. وزعم ابن العربي أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في موطنه الذي أقرأه طول عمره وأمله في حياته.

والنكسة في هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجمعيتها؟ والاقوى في النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لثلاثي يكون ذكرها لغواً فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر في تعلقه بالكل إلى الآخر.

قلت: القول بالتوسعة أرجح. وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة قريباً من غروب الشمس فلم يصل المغرب حتى أتى سرف^(٢)، وذلك تسعة أميال^(٣). وأما القول بالنسخ فليس باليّن وإن كان التاريخ معلوماً؛ فإن الجمع ممكن. قال علماؤنا: تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس. قال ابن خويّز منّاد: ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس. وأحاديث التوسعة تين وقت الجواز، فيرتفع التعارض ويصح الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة؛ المعنى: وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح؛ قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء؛ أي فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج. وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضاً.

قلت: وقد استقرّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدراً لا يضر بمن خلفه يقرأ فيها بطوال المفصل، ويلبسها في ذلك الظهر والجمعة وتخفيف القراءة في المغرب وتوسطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفّف كالمغرب. وأما ما ورد في صحيح مسلم وغيره من الإطالة فيما استقرّ فيه التقصير، أو من التقصير فيما استقرّت فيه الإطالة؛ كقراءته في الفجر المعوذتين^(٤) كما

- (١) صحيح: مسلم (٦١٣) في المساجد ومواضع الصلاة.
- (٢) سرف في معجم البلدان (٢٣٩/٣) مكان بين مكة والمدينة وهو أقرب إلى مكة فبينه وبينها ستة أميال فيه تزوج النبي ﷺ ميمونة رضي الله عنها، وبه مات أيضاً.
- (٣) ضعيف وهو محتمل للتحسين: أحمد (٣٠٥/٣) وفيه محمد بن فيصل بن غزوان، والأجلح الكندي وكلاهما شيعي، ثم فيه عن أبي الزبير عن جابر.
- (٤) صحيح: أبو داود (١٤٦٢) في الصلاة، والنسائي (٢٥٢/٨) في الافتتاح وصححه الألباني عن عقبه بن عامر رضي الله عنه.

رواه النَّسائي وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب، فمتروك بالعمل^(١). ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه في العشاء فافتتح سورة البقرة. خرّجه الصحيح^(٢). وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال: «أيها الناس إن منكم منفرين فأياكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والمرضى والسقيم والضعيف وذا الحاجة»^(٣). وقال: «فلإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ما شاء الله»^(٤). كله مسطور في صحيح الحديث.

الخامسة: قوله تعالى: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ» دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سَمِيَ الصلاة قرآنًا. وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والقدّ في كل ركعة. وهو مشهور قول مالك. وعنه أيضاً أنها واجبة في جُلّ الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضاً تجب في ركعة واحدة؛ قاله المُغيرة وسُحُون. وعنه أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشدّ الروايات عنه. وحكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة، وإليه ذهب الأوزاعي. وعن الأوزاعي أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والقدّ والمأموم على كل حال. وهو أحد قولي الشافعي. وقد مضى في الفاتحة مستوفى.

السادسة: قوله تعالى: «كَانَ مَشْهُودًا» روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»^(٥) هذا حديث حسن صحيح. ورواه علي بن مُسهر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ. وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «فَضَّلُ صَلَاةَ الْجَمْعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسَ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ». يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»^(٦). ولهذا المعنى يُكره بهذه الصلاة، فمن لم يكره لم تشهد صلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة. ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعي: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاته ذلك فالإسفار أو كفى من التغليس. وهذا مخالف لما كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس، وأيضاً فإن فيه تفويت شهود ملائكة الليل. والله أعلم.

السابعة: استدلل بعض العلماء بقوله ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار.

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في

(١) صحيح وقد جاء في الصحيحين عن أم الفضل، البخاري (٧٦٣)، مسلم (٤٦٢).

(٢) صحيح: البخاري (٧٠٥) في الأذان، مسلم (٤٦٥) في الصلاة عن جابر.

(٣) صحيح: البخاري (٧٠٢) في الأذان، مسلم (٤٦٦) في الصلاة عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(٤) صحيح: البخاري (٧٠٣)، مسلم (٤٦٧) في الصلاة في الأذان.

(٥) صحيح: الترمذي (٣١٣٥) في التفسير ابن ماجه (٦٠٧) في إقامة الصلاة وصححه الألباني هناك عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) صحيح: البخاري (٦٤٨) في الأذان، مسلم (٦٤٩) في المساجد ومواضع الصلاة.

الصحيح عن النبي الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر»^(١) الحديث. ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والايان، وهذا واضح.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٥٣﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ» «من» للتبعض. والفاء في قوله «فَتَهَجَّدْ» ناسقة على مضمر، أي قم فتهجد. «به» أي بالقرآن. والتَهَجَّد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد. قال الشاعر:

ألا زارتُ وأهلُ مني هجود وليت خيالها بمنى يعود

أخبر:

ألاً طرفتنا والرفاق هجود فباتت بعلات النوال تجود

يعني نياماً. وهجد وتهجد بمعنى. وهجده أي أتمته، وهجده أي أيقظته. والتهجد التيقظ بعد رقدة، فصار اسماً للصلاة؛ لأنه يتبها لها. فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم. وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج ابن عمر صاحب النبي ﷺ أنه قال: أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كله أنه قد تهجد إنما التهجد الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة. كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ. وقيل: الهجود النوم. يقال: تهجد الرجل إذا سهر، وألقى الهجود وهو النوم. ويسمى من قام إلى الصلاة متهجداً؛ لأن المتهجذ هو الذي يُلقى الهجود الذي هو النوم عن نفسه. وهذا الفعل جار مجرى تحوب وتحرج وتأثم وتحنث وتقدر وتنحس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه. ومثله قوله تعالى: «فَظَلَّمْ تَفَكُّهُونَ» معناه تندمون؛ أي تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها. يقال رجل فكه إذا كان كثير السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتا من الليل أسهرته في صلاة وقراءة.

الثانية: قوله تعالى: «نَافِلَةً لَّكَ» أي كرامة لك؛ قاله مقاتل. واختلف العلماء في تخصيص النبي ﷺ بالذكر دون أمته؛ فقيل: كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله: «نَافِلَةً لَّكَ» أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة.

قلت: وفي هذا التأويل بعد لوجهين: أحدهما: تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجاز لا حقيقة. الثاني: قوله ﷺ: «خمس صلوات فرضهن الله على العباد»^(٢)، وقوله تعالى: «هن خمس

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) صحيح: وقد سبق.

وهن خمسون لا يبدل القول لَدَيَّ»^(١) وهذا نص، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس، هذا ما لا يصح، وإن كان ذلك روي عنه عليه السلام: «ثلاث عليّ فريضة ولأمتي تطوع قيام الليل والوتر والسواك»^(٢). وقيل: كانت صلاة الليل تطوعاً منه وكانت في الابتداء واجبة على الكل، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة، كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيناً في سورة «المزمل» إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له. فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة في الدرجات. وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع في الفرض؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق في العبادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ اختلف في المقام المحمود على أربعة أقوال:

الأول: وهو أصحابها الشفاعة للناس يوم القيامة؛ قاله حذيفة بن اليمان. وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً كل أمة تتبع نبياً تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود^(٣). وفي صحيح مسلم عن أنس قال حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول: أنا لها^(٤) وذكر الحديث. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سئل عنها قال: «هي الشفاعة»^(٥) قال: هذا حديث حسن صحيح.

الرابعة: إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذي يتدفعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ؛ ولأجل ذلك قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٦). قال النقاش لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكباير. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدفعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء. وقال القاضي أبو الفضل عياض: شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة في قوم

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) ضعيف جداً : وقال الألباني (٢٥٦١) في ضعيف الجامع موضوع .

(٣) صحيح : البخاري (٤٧١٨) في التفسير .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) صحيح : الترمذي (٣١٣٧) في التفسير وصححه الألباني هناك .

(٦) صحيح : وقد سبق .

من موحدٍ أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا ﷺ، ومن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتسييح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعَةَ الحشر الأول.

الخامسة: قال القاضي عياض: وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبي ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعَةَ النبي ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كله خلاف ما عرف من دعاء السلف والخلف. روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً ﷺ الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة» (١).

القول الثاني أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة.

قلت: وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ويدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي» (٢) الحديث.

القول الثالث: ما حكاه الطبري عن فرقة، منها مجاهد، أنها قالت: المقام المحمود هو أن يجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرميه (٣)؛ وروت في ذلك حديثاً. وعصّد الطبري جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطّف في المعنى، وفيه بُعدٌ. ولا يُنكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله. وذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله. قال أبو عمر ومجاهد: وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إلى ربّها ناظرة ﴿[القيامة: ٢٢] قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر.

قلت: ذكر هذا في باب ابن شهاب في حديث التنزيل. وروي عن مجاهد أيضاً في هذه الآية قال: يجلسه على العرش. وهذا تأويل غير مستحيل؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلّها والعرش قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليُعرف

(١) صحيح: البخاري (٦١٤) في الأذان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) انظر قبل السابق.

(٣) ضعيف: الطبري (١٤٥/١٥) وفيه ليث بن أبي سليم: صدوق اختلط جداً، وانظر تعقيب المصنف.

قلت: وهذا معنى بعيد جداً.

وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماساً، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء في الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستو على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف. وليس إقعاده محمداً على العرش موجِباً له صفة الربوبية أو مُخرِجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحلّه وتشريف له على خلقه. وأما قوله في الإخبار: «معهُ» فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المنكوت: ٦٩] ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والخطوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان.

الرابع: إخراجُه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم (١). وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) والله الموفق.

السادسة: اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما أن الباري تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني أن قيام الليل فيه الخلوة مع الباري والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلهم فيه درجة محمد ﷺ؛ فإنه يُعطي ما لا يُعطي أحد ويشفع ما لا يشفع أحد. و«عسى» من الله عز وجل واجبة. و«مقاماً» نصب على الظرف. أي في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي» (٢). فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمر الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾

قيل: المعنى أمتي إمامة صدق، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق؛ ليتصل بقوله «عسى أن يعطيك ربك مقاماً محموداً». كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لئيجز له الوعد. وقيل: أدخلني في الأمور وأخرجني من المنهي. وقيل: علمه ما يدعو به في صلواته وغيرها من إخراجها من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة. وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت: «وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» (٣) قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال

(١) صحيح: مسلم (١٩١) في الإيمان.

(٢) صحيح: الطبري (١٤٦/١٥) في تفسيره.

(٣) ضعيف: الترمذي (٣١٣٩) في التفسير وضعفه الألباني هناك والطبري (١٤٩/١٥) وفي إسناده لين.

الضحاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح أمناً. أبو سهل: حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] يعني إدخال عز وإخراج نصر إلى مكة. وقيل: المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدقة وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتني؛ قال معناه مجاهد. والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقوله: ﴿أَنْزَلْنِي مِنْزَلاً مُّبَارَكاً﴾ [المؤمنون: ٢٩] أي إنزالاً لا أرى فيه ما أكره. وهي قراءة العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم «مدخل» و«مخرج» بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج؛ فالأول رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث^(١). وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك. وقيل: الآية عامة في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، ويتنظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: رب أصلح لي ورتدي وصدري في كل الأمور. وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيراً﴾ قال الشعبي وعكرمة: أي حجة ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله. قال: فوعده الله لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارَسَ وَالرُّومَ وَغَيْرَهَا فَيَجْعَلَهُ لَه.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى البخاري والترمذي عن ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصباً، فجعل النبي ﷺ يطعنها بمخصرة في يده وربما قال بعود ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً». جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد^(٢) لفظ الترمذي. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا في حديث مسلم «نُصِباً»^(٣). وفي رواية صنماً. قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون في يوم صنماً ويخصون أعظمها بيومين. وقوله: «فجعل يطعنها بعود في يده» يقال: إنها كانت مثبتة بالرصاص وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خر لقفاه، أو في قفاه خر لوجهه. وكان يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» حكاه أبو عمر والقاضي عياض. وقال القشيري: فما بقي منها صنم إلا خر لوجهه، ثم أمر بها فكسرت.

الثانية: في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذ غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنائير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى. قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصور المتخذة من المدر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذها الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه. ولا يجوز بيع شيء منه إلا

(١) ضعيف - الطبري (١٥٠/١٥) من طريق العوفيين به وفي جهالة وضعف.

(٢) صحيح: البخاري (٢٤٧٨) في المظالم، مسلم (١٧٨١) في الجهاد والسير الترمذي (٣١٣٨) في التفسير.

(٣) صحيح: مسلم (١٧٨١/٨٧ مكرر) في الجهاد والسير من طريق الثوري عن ابن أبي نجیح عن مجاهد عن أبي

معمر عن عبد الله به مسعود ..

الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غيّرت عما هي عليه وصارت تُقرأ (١) أو قطعاً فيجوز بيعها والشراء بها. قال المهلب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولئها مسكورة؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال. وقد تقدّم حرق ابن عمر رضي الله عنه. وقد هم النبي ﷺ بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة (٢). وهذا أصل في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة التي لعنتها صاحبها: «دعوها فإنها ملعونة» (٣) فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبها، وعقوبة لها فيما دعت عليه بما دعت به. وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً شيب بماء على صاحبه.

الثالثة: ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله ﷺ: «والله لينزلن عيسى ابن مريم حكماً عادلاً فليَكْسِرَنَّ الصليبَ وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ وَلَيَضَعَنَّ الجزيةَ وَلَيَتَرَكَنَّ القلاصَ» (٤) فلا يُسمى عليها» (٥) الحديث. خرجها الصحيحان. ومن هذا الباب هتك النبي ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليل على إفساد الصور وآلات الملهي كما ذكرنا. وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم؛ وحسبك وسيأتي هذا المعنى في «النمل» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام. وقيل: القرآن؛ قاله مجاهد. وقيل: الجهاد. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان؛ قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه. ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾: بطل الباطل. ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها. يقال: زهقت نفسه تزهق زهوفاً، وأزهقتها. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي لا بقاء له، والحق الذي يثبت.

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٦)

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلَ﴾ قرأ الجمهور بالنون. وقرأ مجاهد «وَيُنزِلُ» بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفص. و ﴿مِنْ﴾ لا ابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: ونزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: «من لم يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ فلا شفاء الله». وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِنْ» للتبعية؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعية بحسب أن إنزاله إنما هو مبعوض؛ فكأنه قال: ونزل من القرآن شيئاً شفاء؛ ما

(١) نقرا: ج (نقر) وهي من الذهب والفضة: القطعة المذابة، وقيل هو ما سبك مجتمعاً منها، والنقرة: السبيكة.

(٢) صحيح: البخاري (٦٤٤) في الأذان، مسلم (٦٥١) في المساجد ومواضع الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: مسلم (٢٥٩٥) في البر والصلة عن عمران بن الحصين رضي الله عنه.

(٤) القلاص: في اللسان ج (قلوص) بفتح الفاء وهي: الفتية من الإبل.

(٥) صحيح: البخاري (٢٢٢٢) في البيوع، مسلم (١٥٥) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فيه كله شفاء^(١).

الثانية: اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين: أحدهما أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب، ولتكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوذ ونحوه. وقد روى الأئمة واللفظ للدارقطني عن أبي سعيد الخدري قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية ثلاثين راكباً قال: فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا؛ قال: فلدغ سيد الحي، فأتونا فقالوا: فيكم أحد يرقي من العقرب؟ في رواية ابن قتيبة: إن الملك يموت. قال: قلت: أنا نعم، ولكن لا أفعل حتى تعطونا. فقالوا: فلإننا نعطيكم ثلاثين شاة. قال: فقرأت عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سبع مرات فبرأ. في رواية سليمان بن قتيبة عن أبي سعيد: فإفاق وبرأ. فبعث إلينا بالنزل وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبوا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال: «وما يدريك أنها رقية؟» قلت: يا رسول الله، شيء ألقى في روعي. قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم»^(٢) خرجه في كتاب السنن. وخرجه في (كتاب المديح) من حديث السري بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي سليم عن الحسن عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ينفع باذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسل والحُمى والنفس أن تكتب بزعفران أو بمشق يعني المغرة أعوذ بكلمات الله التامة وأسمائه كلها عامة من شر السامة والغامة ومن شر العين اللامة ومن شر حاسد إذا حسد ومن أبي فروة وما ولد»^(٣). كذا قال، ولم يقل من شر أبي قتيبة^(٤). العين اللامة: التي تصيب بسوء. تقول: أعيدته من كل هامة لامة. وأما قوله: أعيدته من حادثات الامة فيقال: هو الدهر. ويقال الشدة. والسامة: الخاصة. يقال: كيف السامة والعامية. والسامة السم. ومن أبي فروة وما ولد. وقال: ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربهم عز وجل فقالوا: وصَبُّ بَارِضْنَا. فقال: خذوا تربة من أرضكم فامسحوا بواصيكم. أو قال: نواصيكم رقية محمد ﷺ لا أفلح من كتبها أبداً أو أخذ عليها صفداً^(٥). ثم كتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة، والآية التي فيها تصريف الرياح وآية الكرسي والآيتين اللتين بعدها، وخواتيم سورة البقرة من موضع ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣١] إلى آخرها، وعشراً من أول «آل عمران» وعشراً من

(١) ضعيف: الدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة كما في الكنز (٦: ٢٨١) وذكره السيوطي (١٤/١) في الدر المنثور، وعزاه لابن قانع في معجم الصحابة عن رجاء الغنوي بنحوه، وقال المتقي الهندي في الكنز: وقد أشار الذهبي إلى عدم صحة هذا الخبر وانظر ضعيف الجامع (٨١٠) للالباني رحمه الله.

(٢) صحيح: البخاري (٢٧٧٦) في الإجارة، مسلم (٢٢٠١) في السلام، أبو داود (٣٤١٨) في البيوع، الترمذي (٢٠٦٣) في الطب، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) ضعيف: كما ترى فيه ليث بن أبي سليم وهو صدوق مختلط جداً، وفيه عننة الحسن البصري وهو مدلس وانظر الديلمي (٨٩٢٧) في مسند الفردوس.

(٤) هذه كنية إبليس، بكسر القاف وسكون التاء كما في اللسان.

(٥) صفداً: في اللسان. هو: العطاء.

آخرها، وأوّل آية من النساء، وأوّل آية من المائدة، وأوّل آية من الأنعام، وأوّل آية من الأعراف، والآية التي في الأعراف ﴿إِنْ رَكِمَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] حتى تختتم الآية؛ والآية التي في «يونس» من موضع ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، والآية التي في طه ﴿وَأَتَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وعشراً من أوّل الصافات، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، والمعوذتين. تكتب في إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحشو منه الوجد ثلاث حشوات ثم يتوضأ منه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدرة وظهره ولا يستنجي به ثم يصلي ركعتين ثم يستسفي الله عز وجل؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كل يوم كتاباً. في رواية: ومن شر أبي قترّة وما ولد. وقال: «فامسحوا نواصيكم» ولم يشك^(١). وروى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما نفل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه لبركتها. فسألت الزهري كيف كان ينفث؟ قال: كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه^(٢). وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوذتين وتفل أو نفث^(٣). قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون تفسير «نفث» نفخ نفخاً ليس معه ريق. ومعنى «تفل» نفخ نفخاً معه ريق. قال الشاعر:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يفقد فحق له الفؤود

وقال ذو الرمة:

ومن جوف ماء عرمض الحولِ فوقه متى يحس منه مائحُ القوم ينفل

أراد ينفخ بريق. وميأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرقي إلا بالمعوذات^(٤). قال الطبري: وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدين؛ إذ في نقلته من لا يعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً؛ لقوله عليه السلام في الفأحة «ما أدراك أنها رقية؟»^(٥). وإذا جاز الرقي بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما في الجواز إذ كله قرآن. وروي عنه عليه السلام أنه قال: «شفاء أمتي في ثلاث، آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم»^(٦). وقال رجاء الغنوي: ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له^(٧).

(١) ضعيف : أبو يعلى (٢٤١٧) في مسنده .

(٢) صحيح : البخاري (٥٧٣٥) في الطب ، مسلم (٢١٩٢) في السلام والسائل هو : معمر بن راشد .

(٣) صحيح : انظر السابق .

(٤) كذا عند البيهقي (٣٥٠ / ٩) في سننه الكبرى .

(٥) صحيح : سبق تخريجه في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٦) صحيح : البخاري (٥٦٨٠) في الطب لكن بلفظ (الشفاء في ثلاثة : شربة عسل أو شرطة محجم، وكية النار ، وأنهى أمتي عن الكي) فليس فيه آية في كتاب الله .

(٧) ضعيف : وقد سبق .

الرابعة: واختلف العلماء في النشرة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يفسله بالماء ثم يسمح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيّب. قيل له: الرجل يؤخذ عن امرأته أيحلّ وينشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم ينه عنه. ولم ير مجاهد أن تكتب آيات من القرآن ثم تغيب ثم يسقاه صاحب الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوذتين في إناء ثم تأمر أن يصب على المريض. وقال المازري أبو عبد الله: النشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وصميت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها أي تحلّ. ومنعها الحسن وإبراهيم النخعي، قال أنخعي: أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكان ذهب إلى أنه ما محى به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاء أقرب منه إلى أن يفيد شفاء. وقال الحسن: سألت أنساً فقال: ذكروا عن النبي ﷺ أنها من الشيطان^(١). وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: مثل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان»^(٢). قال ابن عبد البر: وهذه آثار لينة ولها وجوه محتملة، وقد قيل: إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وعن المداواة المعروفة. والنشرة من جنس الطب فهي غسالة شيء له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ. وقال ﷺ: «لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»^(٣).

قلت: قد ذكرنا النص في النشرة مرفوعاً وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه.

الخامسة: قال مالك: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرك بها إذا لم يرد معلقها بتعليقها مدافعة العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين. وعلى هذا القول جماعة أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يعلق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيء من العلائق خوف نزول العين، وكل ما يعلق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجا الفرج والبرء من الله تعالى، فهو كالرقي المباح الذي وردت السنة بأباحته من العين وغيرها. وقد روى عبد الله بن عمرو قال: قلل رسول الله ﷺ: «إذا فزع أحدكم في نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يحضرون»^(٤). وكان عبد الله يعلمها ولده من أدرك منهم، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه. فإن قيل: فقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «من علق شيئاً وكل إليه»^(٥) ورأى ابن مسعود لأغنياء عن الشرك، ثم قال: إن السمائم

(١) انظر التالي.

(٢) صحيح: أبو داود (٣٨٦٨) في الطب عن جابر رضي الله عنه وصححه الألباني هناك.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٠) في السلام بلفظ «لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك» والجزء الثاني (٢١٩٩) في السلام عند مسلم أيضاً.

(٤) حسن: أبو داود (٣٨٩٣) في الطب، الترمذي (٣٥٢٨) في الطب وحسنه الألباني هناك دون زيادة أن ابن عمرو كان معلمها... الحديث.

(٥) محتمل للتحسين وهو ضعيف: الطبراني في الكبير في ترجمة معبد الجهمي وقد قيل: إنه عبد الله بن عكيم، قال الهيثمي (١٠٣/٥) في المجمع: فإن كان هو فقد ثبتت صحبته بقوله: سمعت، وفي إسناد محمد بن أبي ليلى وهو سني الحفظ.

والرقى والتولة من الشرك. قيل: ما الوَلَّة؟ قال: ما تحببت به لزوجها^(١). وروى عن عقبه بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من علق تيممة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا ودع الله له قلباً»^(٢). قال الخليل بن أحمد: التيممة قلادة فلادة فيها عوذ، والودعة خرز. وقال أبو عمر: التيممة في كلام العرب القلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق في الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها (من أنواع البلاء وكان المعنى في الحديث من يعلق خشية ما عسى) أن ينزل أو لا ينزل قبل أن ينزل، فلا أتم الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلق ودعة وهي مثلها في المعنى فلا ودع الله له؛ أي فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمام والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافي والمبتلى، لا شريك له، فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمام. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التيممة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده. والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى. وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن القرابين والكهان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلقاً وغير معلق لا يكون شركاً، وقوله عليه السلام: «من علق شيئاً وكل إليه»^(٣). فمن علق الرآن ينبغي أن يتولاها الله ولا يكله إلى غيره. لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكل عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسئل ابن المسيب عن التعويد أيعلق؟ قال: إذا كان في قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به. وهذا على أن المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخص أبو جعفر محمد بن علي في التعويد يعلق على الصبيان. وكان ابن سيرين لا يرى بأساً بالشيء من القرآن يلقيه الإنسان.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريح الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذي عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولا م حرف وميم حرف»^(٤). قال هذا حديث حسن صحيح غريب وقد تقدم ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ لتكذيبهم. قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ لآية ونظير هذه الآية قوله: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ وقيل: شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً

(١) صحيح: أبو داود (٣٨٨٣) في الطب مختصراً، وابن ماجه (٣٥٣٠) في الطب.

(٢) صحيح: أحمد (١٥٦/٤) في المسند، وصححه الألباني (٦٣٩٤) في صحيح الجامع.

(٣) صحيح: وقد سبق.

(٤) سبق في أول الكتاب.

صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمة. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى «وَنَأَى بِجَانِبِهِ» أي تكبر وتباعد. وناء مقلوب منه؛ والمعنى: بعد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال: نأى الشيء أي بعد. ونأيته ونأيت عنه بمعنى، أي بعدت وأنأيت فأنأى؛ أي أبعدته فبُعد. وتناؤوا وتباعدوا. والمتأى؛ الموضع البعيد.

قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإن خَلَّتْ أن المتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان «ناء»^(١) مثل باع، الهمزة مؤخّرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال: راء ورأى. وقيل: هو من النوء وهو النهوض والقيام. وقد يقال أيضاً للوقوف والجلوس: نوء؛ وهو من الأضداد. وقرئ «ونئى» بفتح النون وكسر الهمزة. والعامّة «نأى» في وزن رأى. «وإذا مسه الشرُّ كان يتوساً» أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يشس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى.

﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فَرِيكَمْ أَغْلَبُ مَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ ﴾ قال ابن عباس: ناحيته . وقاله الضحّاك . مجاهد: طبيعته. وعنه: حدثه. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيته. مقاتل: جيلته. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جبل عليه. وقيل: قل كل يعمل على ما هو أشكل عنده وأولى بالصواب في اعتقاده. وقيل: هو مأخوذ من الشكل؛ يقال: لست على شكلي ولا شاكلي. قال الشاعر:

كل امرئ يشبهه فعله ما يفعل المرء فهو أهله

فالشكّل هو المثل والنظير والضرب. كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ والشكّل (بكسر السين): الهيئة. يقال جارية حسنة الشكّل وهذه الأقوال كلّها متقاربة. والمعنى: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي ألفها، وهذا ذمّ للكافر ومدح للمؤمن. والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدي ﴿فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم. وقيل: ﴿أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي أسرع قبولاً. وقيل: أحسن ديناً. وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران^(٢). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴿ قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة للمؤمنين^(٤). وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه:

(١) قراءة سبعية: السبعة لابن مجاهد ص ٣٨٤ .

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس كما عند الطبري (١٥٤/١٥) وباقي الأقوال هناك .

(٣، ٤) - البحر المحيط (٧٥/٦) لأبي حيان .

قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿ نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١). وقال علي بن أبي طالب قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢). قلت: وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم (٣) إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً؛ فعلمت أنه يوحى إليه، فقممت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لفظ البخاري (٤). وفي مسلم: فأسكت النبي ﷺ. وفيه: وما أوتوا (٥). وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، أي الروح هو؟ فقيل: هو (٦) جبريل؛ قاله قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه (٧). وقيل هو عيسى. وقيل القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر الشورى. وقال علي بن أبي طالب: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، في كل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة (٨). ذكره الطبري. قال ابن عطية: وما أظن القول يصح عن علي رضي الله عنه.

قلت: أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدثنا عثمان ابن سعيد حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ يقول: الروح ملك (٩). وبإسناده عن معاوية بن صالح حديثي أبو هران (بكسر الهاء) يزيد بن سمرة عمن حدثه عن علي بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه (١٠). . . الحديث بلفظه ومعناه. وروى

(١)، (٢) البحر المحيط (٧٥/٦) لأبي حيان.

(٣) قصد: ما رابكم إليه: أي ما إربكم وما حاجتكم إليه.

(٤)، (٥) صحيح: البخاري (٤٧٢١) في التفسير، مسلم (٢٧٩٤) في صفات المنافقين وأحكامهم.

(٦) صحيح مقطوع: الطبري (١٥٧/١٥).

(٧) منقطع بين قتادة وابن عباس: انظر السابق.

(٨) ضعيف: فيه جهالة المحدث عن علي رضي الله عنه، وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث، الطبري

(١٥٧/١٥) وانظر العظمة (٤١٠) لأبي الشيخ، وقال ابن كثير (٨٨/٤) في تفسيره وهذا أثر غريب وعجيب

والله أعلم.

(٩) هذا إسناد ضعيف: للانقطاع فيه، وانظر الأسماء والصفات (٧٨٠) للبيهقي، والطبري (١٥٧/١٥) في

تفسيره.

(١٠) انظر قبل السابق.

عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة^(١)، ذكره النحاس. وعنه: جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام؛ ذكره الغزالي. وقال الخطابي: وقال بعضهم، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلق. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل. وقال أبو صالح: الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيد وأرجل^(٢). والصحيح الإبهام^(٣) لقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ دليل على خلق الروح أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى، مسبهاً له وتاركاً تفصيله، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها. وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى. وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختلف فيمن خوطب بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المراد اليهود بجملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود «وما أوتوا»^(٤) ورواها عن النبي ﷺ. وقالت فرقة: المراد العالم كله. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور «وما أوتيتم». وقد قالت اليهود للنبي ﷺ: كيف لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغلبوا. وقد نص رسول الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: «كُلًّا» يعني أن المراد بـ«ما أوتيتم» جميع العالم. وذلك أن يهود قالت له: نحن عنيت أم قومك. فقال: «كُلًّا». وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ لَأَمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. حكى ذلك الطبري رحمه الله وقد قيل: إن السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله^(٥). ذكره المهدوي وغيره من المفسرين عن ابن عباس.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ نُرًّا لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ
إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. أي كما قدرنا على إنزاله نقدر

(١) منقطع : بين عطاء وابن عباس ، انظر العظمة (٤١١) لأبي الشيخ .

(٢) باطل : ولا يصح : وأبو صالح ضعيف .

(٣) وهذا هو الصحيح ، والله أعلم .

(٤) انظر صحيح مسلم (٢٧٩٤/٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤) .

(٥) ذكره الواحدي ص٢٤٥ معلقاً بلا سند .

على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتصل هذا بقوله: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو شئت أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي ناصراً برده عليك. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناء ليس من الأول. وقيل: إلا أن يرحمك ربك فلا يذهب به. ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز. وقال عبد الله بن مسعود: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وأن هذا القرآن كأنه قد نزع منكم، تصبحون يوماً وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد ثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا، نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة قال: يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله ﴿وَلَمَّا شَتْنَا لَنُدْهِنَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن شَدَاد بن معقل قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن ينزع منكم. قال: قلت كيف ينزع منا وقد أثبتته الله في قلوبنا وثبتناه في مصاحفنا قال: يسرى عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء. ثم قرأ ﴿وَلَمَّا شَتْنَا لَنُدْهِنَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي كدوي النحل، فيقول الله ما بالك. فيقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أتلى فلا يعمل بي، أتلى ولا يعمل بي^(١).

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة. قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ الشُّبُّ حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيسري على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركننا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله. وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة». قال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؛ فأعرض عنه حذيفة؛ ثم رَدَّهَا ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة. ثم أقبل عليه حذيفة فقال: يا صلة تنجيهم من النار، ثلاثاً^(٢). أخرجه ابن ماجه في السنن. وقال عبد الله بن عمر: خرج النبي ﷺ وهو معصوب الرأس من وجع فضحك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس ما هذه الكتب التي تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يدع ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منه» قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «من أراد الله به خيراً أبقي في قلبه لا إله إلا الله»^(٣) ذكره الثعلبي

(١) صحيح: الهيثمي (٥٢/٧، ٣٣٠) في المجمع وقال: رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة، وابن أبي شيبة (٥٣٤/١٠)، (١٧٥-١٧٦/١٥) والطبري (١٥٨/١٥) في تفسيره.

(٢) صحيح: ابن ماجه (٤٠٤٩) في الفتن وصححه البوصيري في الزوائد وقال: رجاله ثقات، وكذا صححه الألباني هناك.

(٣) موضوع: السيوطي (٤٤١/٩) في الدر وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر، وانظر تخريج الكشاف (٢٩٢/٢).

والغزنوي وغيرهما في التفسير.

﴿ قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ﴿١٥﴾

أي عوناً ونصيراً؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أول الكتاب. والحمد لله. و ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم في «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر:
لئن كان ما حدثته اليوم صادقاً أقم في نهار القيظ للشمس بادياً

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهل مكة، بين لهم الحق وفتح لهم وأمهلمهم حتى تبين لهم أنه الحق، فأبوا إلا الكفر وقت تبين الحق. قال المهدي: ولا حجة للقسري في قولهم: لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادراً وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ﴿١٧﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١٨﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كَيْفَا أَوْ تَأْتِي بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴿١٩﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآية نزلت في رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد لله بن أبي أمية، وأمية بن خلف وأبي البختري، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضوا به معجزة، اجتمعوا فيما ذكر ابن إسحاق وغيره بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلّموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بدو، وكان رسول الله ﷺ حريصاً يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عنّهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسقّمت الأحلام وفرقت

الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له. فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فتحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثاً تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجن ريثاً فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جثت بما جثتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن قبلوا مني ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلدأ ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشاً منا، فنسلّ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول، أحقّ هو أم باطل، فإن صدّقوك وصنعت ما سألتك صدقتك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بعثت إليكم إنما جثتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك سلّ ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وإسأله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلمس المعاش كما نلتسه، حتى نعرف فضلك ومزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً أو كما قال فإن قبلوا مني ما جثتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فاسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل؛ فلنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل» قالوا: يا محمد، أقمنا علم ربك أنا منجلس معك ونسألك عما سألتك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جثتنا به. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعددنا إليك يا محمد، وأنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك

عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل أو كما قال له فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصكك معاً أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنني أصدقك ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً لما فاتته بما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباحدتهم إياه؛ كله لفظ ابن إسحاق^(١). وذكر الواحدي عن عكرمة عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾^(٢) ﴿يَبُوعًا﴾ يعني العميون^(٣)؛ عن مجاهد. وهي يفعل، من بَعَجَ يَبِيعُ. وقرأ عاصم وحزمة وللخسائي «تفجر لنا» مخففة؛ واختاره أبو حاتم لأن الينوع واحد. ولم يختلفوا في تفجر الأنهار أنه مشدد. قال أبو عبيد: والأولى مثلها. قال أبو حاتم: ليست مثلها؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتشديد يدل على التكثير. أجيب بأن ﴿يَبُوعًا﴾ وإن كان واحداً فالمراد به الجمع، كما قال مجاهد. الينوع عين الماء، والجمع الينابيع. وقرأ قتادة «أو يكون لك جنة». ﴿خِلَالَهَا﴾ أي وسطها. ﴿أَوْ تُسْفِطَ السَّمَاءُ﴾ قراءة المعامة. وقرأ مجاهد «أو يسقط السماء» على إسناد الفعل إلى السماء. ﴿كِسْفًا﴾ قطعاً؛ عن ابن عباس وغيره. والكِسْفُ (بفتح السين) جمع كسفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباقر «كسفاً» بإسكان السين. قال الأخفش: من قرأ كسفاً من السماء جعله واحداً، ومن قرأ كسفاً جعله جمعاً. قال المهدوي: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كسفة وجزاً أن يكون مصدرأ؛ من كسفت الشيء إذا غطيته. فكانهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا. وقال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف وكسف. ويقال: الكسف والكسفة واحد. ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي معاينة؛ عن قتادة وابن جريج. وقال الضحاك وابن عباس: كفيلاً. قال مقاتل: شهيداً. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة. وقيل: ضمناً يضمنون لنا إتيانك به. ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ﴾ أي من ذهب؛ عن ابن عباس وغيره. وأصله الزينة. والمزخرف المزين. وزخارف الماء طرائقه. وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الزخرف حتى رأيته في قراءة ابن مسعود «بيت من ذهب» أي نحن لا نقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى. ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد؛ يقال: رقيت في السلم أرقى رقياً ورفياً إذا صعدت. وارتقيت مثله. ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي من أجل رقيك، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مضياً، وهوى يهوي هويماً، كذلك رقى يرقى رقياً. ﴿حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ أي كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً﴾. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام «قال سبحان ربي» يعني النبي ﷺ؛ أي قال ذلك تنزيهاً لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يعترض عليه في فعل. وقيل: هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقر «قل؛ على أمر» أي قل لهم يا محمد «هل كنت» أي

(١) ضعيف: وفي جهالة المحدث لابن إسحاق كما في تفسير الطبري (١٦٤/١٥) إلى (١٦٦/١٥).

(٢) ضعيف: انظر السابق: الواحدي ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) صحيح: الطبري (١٦٠/١٥) في تفسيره.

ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أتبع ما يوحى إليّ من ربّي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات وقال بعض الملحدين: ليس هذا جواباً مقنعاً، وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتوني، وليس لي أن أتخير على ربّي، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أمهم بكل ما يريدونه ويصفونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما أتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ جهلاً منهم. ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي الله أجل من أن يكون رسوله من البشر. فبين الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الاتقياد، وغلطوا عن المعجزة. ف﴿أَنْ﴾ الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض. و﴿أَنْ﴾ الثانية في محل رفع بـ﴿مَنَعَ﴾ أي وما منع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشراً رسولاً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَشْهَوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٣٩﴾﴾

أعلم الله تعالى أن الملك إنما يرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكاً إلى آدميين لم يقدرُوا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرُون به ليكون ذلك آية لهم ومعجزة. وقد تقدّم في «الأنعام» نظير هذه الآية؛ وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ وقد تقدّم الكلام فيه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤٠﴾﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ فمن يشهد لك أنك رسول الله. فنزل ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا وَأُولَئِكَ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي لو هداهم الله لاهدوا. ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي لا يهديهم أحد. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا.

الثاني: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبائع في هوانه وتعذبه. وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»؛ قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا^(١). أخرجه البخاري ومسلم. وحسبك. ﴿عَمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال ابن عباس والحسن: أي عُمِيٌّ عَمَّا يَسْرَهُمْ، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم؛ وعلى هذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادة في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾، وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم ﴿اٰخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ﴾ صاروا عمياً لا يبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون. وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اٰخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُوْنَ. وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً. ﴿مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي مستقرهم ومقامهم. ﴿كَلَّمَا حَبَّتْ﴾ أي سكنت؛ عن الضحاك وغيره. مجاهد طفتت. يقال: حبت النار تخبو خبوا أي طفتت، وأخبيتها أنا. ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي ناراً تلهب. وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم. وقيل: إذا أرادت أن تخبو. كقوله: ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَاتًا ءَأِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَاتًا﴾ أي تراباً. ﴿أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوُتَسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كَيْفًا﴾. وقيل: هو يوم القيامة. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغي أن يشك فيه.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَوْرًا﴾ ﴿١٧﴾

(١) صحيح: البخاري (٤٧٦٠) في التفسير ومسلم (٦/٢٨٠/٥٤) في صفات المنافقين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم، وهذا أعم. ﴿إِذَا لَأْسَكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب قولهم: «لن تؤمن لك حتى تمجر لنا من الأرض ينبوعاً» حتى تتوسع في المعيشة. أي لو توسعتم لبخلتم أيضاً. وقيل: المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين:

أحدهما: أنه لا بد أن يمك منها لنفقتة وما يعود بمنفعتة.

الثاني: أنه يخاف الفقر ويخشى العدم. والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأتتر إذا قلّ ماله. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً مضيقاً. يقال: قتر على عياله يقتر ويقتر قتراً وقثوراً إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقير والإقثار، ثلاث لغات. واختلف في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في المشركين خاصة؛ قاله الحسن.

والثاني: أنها عامة، وهو قوله الجمهور؛ وذكره الماوردي.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مَوْسَى مَسْحُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ اختلف في هذه الآيات؛ فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب؛ كما روى الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسال المرادي أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله؛ فقال: لا تقل له نبي فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبي ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحرُوا ولا تمشوا بيريء إلى لا سلطان ليقته ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف شك شعبة وعليكم (يا معشر) اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت» فقبلا يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تسلما» قالوا: إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود^(١). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقد مضى في البقرة. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع: العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ آيات مفضلات. وقال الحسن والشعبي: الخمس المذكورة في «الأعراف»؛ يعينان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. وروى

(١) ضعيف: الترمذي (٣١٤٤) في التفسير وضعفه الألباني هناك وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره: وهذا حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة - راوي الحديث عن صفوان بن عسال - في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشبهه عليه التسع آيات بال عشر الكلمات فإنها وصليا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. ١ - هـ من تفسير ابن كثير (٩٦/٤).

نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم. وقد تقدم شرح هذه الآيات مستوفى والحمد لله. «فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴿١﴾ أَي سَلِمَهُمْ يَا مُحَمَّد إِذْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ، حَسِبْنَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي يُونُسَ. وَهَذَا سُؤَالُ اسْتِفْهَامٍ لِيَعْرِفَ الْيَهُودُ صِحَّةَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿٢﴾ أَي سَاحِرًا بِغَرَائِبِ أَفْعَالِكَ؛ قَالَ الْفِرَاءُ وَأَبُو عَيْبَةَ. فَوَضَعَ الْمَفْعُولَ مَوْضِعَ الْفَاعِلِ؛ كَمَا تَقُولُ: هَذَا مَشْرُومٌ وَمِيمُونٌ، أَي شَاتِمٌ وَبِامِنٌ. وَقِيلَ مَخْدُوعًا. وَقِيلَ مَغْلُوبًا؛ قَالَه مِقَاتِلٌ. وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي نَهَيْكَ أَنَّهُمَا قَرَأَا «فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» عَلَى الْخَبْرِ؛ أَي سَأَلَ مُوسَىٰ فِرْعَوْنَ أَنْ يَخْلِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَطْلُقَ سَبِيلَهُمْ وَيُرْسِلَهُمْ مَعَهُ.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلْتَهُنَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَنْفِرُ فِرْعَوْنَ مَثْبُورًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلْتَهُنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الآيات التسع. و«أنزل» بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ﴾ أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته. وقراءة العامة «علمت» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء^(١)، وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم، فبلغت ابن عباس فقال: إنها «لقد علمت»، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كله تصح به القراءة عن علي لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كلثوم المرادي وهو مجهول لا يعرف، ولا تعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي. وقيل: إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهدى للحرقة فعله، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهدى لساحر، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شات وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فئمها، ففزع وأحدث في قطيفته. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكُمَيْت:

ورأت قُضَاعَةَ فِي الْآيَا
مِنْ رَأْيِ مَثْبُورٍ وَثَابِرٍ

أي مخسور وخاسر، يعني في انتسابها إلى اليمن. وقيل: ملعوناً رواه المنهال عن سعيد بن جبير

(١) قراءة سبعية: السبعة ص ٣٨٥ لابن مجاهد.

عن ابن عباس^(١). وقاله أبان بن تغلب. وأنشد:

يا قومنا لا تروموا حربنا سَفْهاً
إنَّ السَّفاه وإنَّ البَغْيَ مَثبُورٌ

أي ملعون. وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس: ﴿مَثْبُوراً﴾ ناقص العقل. ونظر المأمون رجلاً فقال له: يا مشبور؛ فمئثل حته قال: قال الرشيد قال المنصور لرجل: مشبور؛ فسألته فقال: حدثني ميمون بن مهران... فذكره. وقال قتادة هالكا. وعنه أيضاً والحسن ومجاهد: مهلكاً. والمَثْبُورُ: الهلاك؛ يقال: تَبَّرَ اللهُ العَدُوَّ ثَبُوراً أهلكه. وقيل: ممنوعاً من الخير. حكى أهل اللغة: ما تبرك عن كذا أي ما منعك منه. وتبره الله يثبره ويثبِّره لغتان. قال ابن الزبَّعري:

إذ أجازي الشيطان في سنن الغرِّ
ي ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُور

الضحاك: ﴿مَثْبُوراً﴾ مسحوراً. ردَّ عليه مثل ما قال له باختلاف اللفظ. وقال ابن زيد: ﴿مَثْبُوراً﴾

مخبولاً لا عقل له.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً﴾ ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ
أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر إما بالقتل أو بالإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل. ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إغراقه ﴿لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الشام ومصر. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيته. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهات شتى. والمعنى واحد. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقال: جاء القوم بلفقهم ولفيفهم، أي وأخلطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي مجتمعين مختلطين. وطعام لفيف إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً. وفلان لفيف فلان أي صديقه. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجميع. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن. ووجه التكرير في قوله ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يجوز أن يكون معنى الأول: أوجينا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق؛ كقوله خرج بشيابه، أي وعليه ثيابه. وقيل الباء في ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ الأول بمعنى مع، أي مع الحق؛ كقولك ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه. ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

(١) كساد هذا الإسناد أن يكون صحيحاً لولا وجود (عمر بن عبد الله الثقفي) وهو ضعيف، وذكره الطبري

أي بمحمد ﷺ، أي نزل عليه؛ كما تقول نزلت بزيد. وقيل: يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُرِيْلَهُ تَنْزِيلًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أن «قرأنا» منصوب بفعل مضمهر يفسره الظاهر. وقرأ جمهور الناس «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قاله الحسن. وقال ابن عباس: فصلناه. وقرأ ابن عباس وعليّ وابن مسعود وأبيّ ابن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعمي «فَرَقْنَاهُ» بالتشديد، أي أنزلناه شيئاً بعد شيء لا جملة واحدة؛ إلا أن في قراءة ابن مسعود وأبيّ «فَرَقْنَاهُ عَلَيْكَ».

واختلف في كم نزل القرآن من المدة؛ فقليل: في خمس وعشرين سنة. ابن عباس: في ثلاث وعشرين. أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله ﷺ، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة. وقد مضى هذا في «البقرة». ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي تطاول في المدة شيئاً بعد شيء. ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أي أنزلناه آية آية وسورة سورة. وأما على القول الأول فيكون ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي على ترسل في التلاوة وترتيل؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج. فيعطي القارئ القراءة حقها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب. وأجمع القراء على ضم الميم من «مكث» إلا ابن محيصن فإنه قرأ «مكث» بفتح الميم. ويقال. مكث ومكث ومكث؛ ثلاث لغات. قال مالك: «على مكث» على تثبت وترسل.

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيْلَهُ تَنْزِيلًا﴾ مبالغة وتأکید بالمصدر للمعنى المتقدم، أي أنزلناه نجماً بعد نجم؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيث لهم والتهديد لا على وجه التخسير. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزول القرآن وخروج النبي ﷺ، وهم مؤمنوا أهل الكتاب؛ في قول ابن جريج وغيره. قال ابن جريج: معنى ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كتابهم. وقيل القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وقيل: هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبي عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد ﷺ. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وقيل: كانوا إذا تلووا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا

وسبحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم. وقيل فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمد ﷺ، والضمير في «قبله» عائذ على القرآن حسب الضمير في قوله «قُلْ آمَنُوا». وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: «إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ».

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

دليل على جواز التسيح في السجود. وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في سجوده وركوعه: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» (١).

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

فيه أربع مسائل:

الأول: قوله تعالى: «وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ» هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل. وفي مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال: من أوتي من العلم ما لم يبيكه لخلق ألا يكون أوتي علماً؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية (٢). ذكره الطبري أيضاً. والأذقان جمع ذقن، وهو مجتمع اللحين. وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللحي؛ أي يرضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع. واللام بمعنى على؛ تقول سقط لفيه أي على فيه. وقال ابن عباس: «ويخرون للأذقان سجداً» أي للوجوه، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان. قال ابن خويز منداد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه، وقد يعبر بالشيء عما جاوره وبيعضه عن جميعه؛ فيقال: خر لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخر صريعاً للبدن وللقم

فإنما أراد: خر صريعاً على وجهه ويديه.

الثانية: قوله تعالى: «يَبْكُونَ» دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على معصيته في دين الله، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها. ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء (٣). وفي كتاب أبي داود: وفي صدره أزيز كأزيز الرحي من البكاء (٤).

(١) صحيح: البخاري (٧٩٤) في الأذان، مسلم (٤٨٤) في الصلاة.

(٢) كذا عند الطبري (١٨٢/١٥) من طريق ابن المبارك والدارمي أيضاً في سننه وابن المبارك (١٢٥) وابن أبي شيبة (٥٤٢/١٣).

(٣، ٤) صحيح: أبو داود (٩٠٤) في الصلاة، النسائي (١٣/٣) في السهو وصححه الألباني هناك.

الثالثة: واختلف الفقهاء في الأئين؛ فقال مالك: الأئين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثوري. وروى ابن الحكم عن مالك: التئحج والأئين والنفخ لا يقطع الصلاة، وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الشافعي: إن كان له حروف تُسمع وتُفهم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع، وإن كان من وجع قطع. وروى عن أبي يوسف أن صلاته في ذلك كله تامة؛ لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من أئين.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ تقدم القول في الخشوع في «البقرة» وبأني.

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ سبب نزول هذه الآية: أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو «يا الله يا رحمن» فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس^(١). وقال مكحول:

تهجد رسول الله ﷺ ليلة فقال في دعائه: «يا رحمن يا رحيم» فسمعه رجل من المشركين، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بال محمد يدعو رحمان اليمامة. فنزلت الآية^(٢) مبيئة أنهما إسمان لمسمى واحد؛ فإن دعوتوه بالله فهو ذاك، وإن دعوتوه بالرحمن فهو ذاك. وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهم؛ فنزلت ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل] فكتب رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال المشركون: هذا الرحيم نعرفه فما الرحمن؛ فنزلت الآية^(٣). وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمع في القرآن إسما هو في التوراة كثير. يعنون الرحمن؛ فنزلت الآية^(٤). وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «أَيًّا مَنْ تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» أي التي تقتضي أفضل الأوصاف وأشرف المعاني. وحسن الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنص عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معاني حسنا شريفة، وهي بتوقيف لا يصح وضع اسم لله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع. حسبما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأول: ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا ﴾ قال: نزلت

(١) ضعيف : الواحدي ص ٢٤٧، ٢٤٨ والطبري (١٨٢/١٥) بسند فيه ضعف .

(٢) مرسل : الطبري (١٨٢/١٥) في تفسيره .

(٣) مرسل : الواحدي ص ٢٤٨ عن ميمون بن مهران وهو عالم الجزيرة ومفتيها (ت ٦٥٤) .

(٤) معضل : السابق ص ٢٤٨ عن الضحاك به .

ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك. ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عن أصحابك. أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر. ﴿وَاتَّبَعِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة؛ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم. واللفظ لمسلم^(١). والمخافتة: خفض الصوت والسكون؛ يقال للميت إذا برد: خفت. قال الشاعر:

لم يبق إلا نفس خافت ومقلّة إنسانها باهت
رئى لها الشامت مما بها يا ويح من يرئى له الشامت

الثاني: ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قالت: أنزل هذا في الدعاء^(٢).

الثالث: قال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك^(٣). قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: من السنة أن تخفي التشهد؛ ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما روي عن ابن سيرين أيضاً أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسر قراءته، وكان عمر يجهر بها، فقيل لهما في ذلك؛ فقال أبو بكر: إنما أنا جري ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطرّد الشيطان وأوقظ الوسنان؛ فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقيل لعمر اخفض أنت قليلاً؛ ذكره الطبري وغيره^(٤).

الخامس: ما روي عن ابن عباس أيضاً أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوي. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخير في الجهر والسر في الليل والنهار، وكذلك روي عن النبي ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعاً. وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلاً ونهاراً. وقول سادس: قال الحسن: يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسنها في العلانية ولا تسيئها في السر^(٥). وقال ابن عباس: لا تصلّ مراتباً للناس ولا تدعها مخافة الناس.

الثانية: عبر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع ومسجد فهي من جملة أجزائها؛ فعبّر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في

(١) صحيح: البخاري (٤٧٢٢) في التفسير، مسلم (٤٤٦) في الصلاة.

(٢) صحيح: البخاري (٤٧٢٣) في التفسير، مسلم (٤٤٧) في الصلاة.

(٣) مرسل: الطبري (١٨٧/١٥) مرسل.

(٤) منقطع: بين ابن سيرين وأبي بكر وعمر كما عند الطبري (١٨٧/١٥) في تفسيره.

(٥) مرسل.

المجاز وهو كثير؛ ومنه الحديث الصحيح: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»^(١) أي قراءة الفاتحة على ما تقدم.

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَثْرَةُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزيز وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه؛ تعالى الله عن أقوالهم ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحداً ولا ابتغى نصر أحد؛ أي لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له ولي من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، رداً لقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ يعني لم يذل فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لعزته وكبريائه. ﴿وَكَثْرَةُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر؛ أي صفة بأنه أكبر من كل شيء. قال الشاعر:

رأيتُ الله أكبر كل شيء محاولة وأكثرهم جنوداً

وكان النبي ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر»^(٢) وقد تقدم أول الكتاب. وقال عمر بن الخطاب: قول العبد لله أكبر خير من الدنيا وما فيها. وهذه الآية هي خاتمة التوراة. روى مطرف عن عبد الله بن كعب قال: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة. وفي الخبر: «أنها آية العز»^(٣)؛ رواه معاذ بن جبل عن النبي ﷺ. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ﴾^(٤) الآية. وقال عبد الحميد بن واصل: سمعت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولداً ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾^(٥). وجاء في الخبر: أن النبي ﷺ أمر رجلاً شكاً إليه بالدين بأن يقرأ ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعَاؤَ الرَّحْمَنِ ﴾ إلى آخر السورة ثم يقول: توكلت على الحي الذي لا يموت؛ ثلاث مرات^(٦).

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) سبق تخريجه قبل ذلك .

(٣) ضعيف : أحمد (٤٣٩/٣) في المسند ، والطبراني (١٩٢/٢٠) وإسناده ضعيف .

قلت : والإسنادان كلاهما ضعيف وهو عن معاذ بن أنس رضي الله عنه .

(٤) ضعيف : ابن السني (٤٢٤) في عمل اليوم والليلة بسند ضعيف .

(٥) مرسل .

(٦) ضعيف : أبو يعلى (٦٦٧١) وابن السني (٥٤٦) بترقيمي بسند ضعيف فيه موسى بن عبيدة الزبيدي وهو ضعيف

وفيه حرب بن ميمون فإن كان الكبير فهو صدوق رمى بالقدر ، وإن كان الصغير فهو متروك .